عبد الجليل ولد حموية

صـرخـة القيـامة

قصص



جائزة "رونق المغرب" للقصة

2020

عبد الجليل ولد حموية

صرخة القيامة

قصص

جائزة "رونق المغرب" للقصة
(دورة 2020)

نشر هذا الكتاب
بدعم من



وزارة الثقافة والشباب والرياضة
- قطاع الثقافة -

الكتـاب : صرخـة القيامـة (قصص).
المؤلـف : عبـد الجليـل ولد حموية.
لوحة الغلاف : الفنانة دعاء آل الشـيخ العلوي.
الناشر : الراصد الوطني للنشر والقراءة.
الهاتـف : 0662.86.53.58.
المطبعة : سـليكي أخوين - طنجة.
الحقوق : محفوظة للمؤلف.
الطبعة : الأولى- مارس 2021.
الإيداع القانوني :
الترقيم الدولي :

إلى
روح رحلت قبل أن تختم قصة فتاة مغربية جميلة
تدعى «حليمة»، بجملتها اللذيذة:
«مشات خبيرتي من واد لواد وبقيت أنا مع لجواد».
إلى
روح رحلت في صمت صاخب كصرخة القيامة.
إلى
روح اختارت نهاية بسيطة تشبه قصصها،
بعد سنوات من الصراع مع وحش يدمر الذاكرة.
وتركتني أحاول مجاراة حبكتها دون جدوى.

«رحلت تاركة سؤالا مؤلما يمخر عباب الزمن: من يستطيع قص حكاية فتاة تنتمي لمرحلة التعايش بالمغرب، دون أن تغالبه الدموع؟ ومن يستطيع نقش قصتها دون أن يجهش قلمه؟ ومن يستطيع إعادة بث الروح فيها ولو من حبر؟»

عبد الجليل ولد حموية

تقديم

هـل يمكـن اعتبـار الجوائـز وسـيلة لنفـض غبـار التهميـش والإقصاء عـن المبـدع، وفرصـة فريدة لإشـعاع الإبـداع وانتشـاره؟

سـؤال راودنـا، ونحـن نعلـن عـن النسـخة الأولى لجائـزة «رونـق» الإبداعيـة سـنة 2014، التـي انفتحـت عـلى جنـسي القصـة والشـعر (الفصيـح والعامـي)، قبـل أن يسـتقر عزمنـا عـلى حصرهـا في القصـة القصـيرة منـذ سـنة 2017، لاعتبـارات متعـددة أهمهـا: غيـاب جوائـز قصصيـة قـارة عـلى غـرار الشـعر والروايـة.

الآن، وبعـد مـرور سـت سـنوات عـلى إطـلاق الجائـزة، هـل يحـق لنـا أن نعلـن عـن نجـاح سـعينا الرامـي إلى اكتشـاف الأسـماء الجديدة والمتفـردة التـي لم تتـح لهـا فرصة الظهـور في محافـل أخـرى...؟ ونحن نسـتقبل سـنويا عـشرات المشـاركات مـن داخـل المغـرب وخارجـه، مـما مكننـا مـن الاطـلاع عـلى مجاميـع قصصيـة متنوعـة، مـن حيـث مضامينهـا وأسـاليبها وتقنيات اشـتغالها.

هـل يحـق لنـا أن نفخـر بكسـب الرهـان، ونحـن نعلـن سـنويا عـن فـوز مجموعـة مـن الأسـماء التـي نجحـت في إقنـاع لجنـة القـراءة بإبداعهـا؟ وهـي أسـماء -شـابة أو مغمـورة همشـها الإعـلام الثقـافي- تعلـن صوتهـا بقـوة، وتشـق طريقها بخطـوات واثقـة في عـوالم القصة المتشعبة.

ونحـن نـزف ميـلاد المجموعتـين القصصيتـين «صرخـة القيامـة» للقـاص عبـد الجليـل ولـد حمويـة، و«أسـماك لا تجيـد السـباحة» للقـاص عبـد المجيـد رفيـع، نؤكـد بـكل اعتـزاز وفخـر عـلى أننـا نقـدم للقـارئ المغـربي مجموعتـين مختلفتـين مـن حيـث أسـلوبهما، والتقنيـات الموظفـة في معالجـة أحداثهـما وبنائهـما الفنـي، لكنهـما متكاملتـان مـن حيـث الرسـائل التـي تتضمنهـا كل واحـدة عـلى حـدة، ومـن حيـث احتكاكهـما بالمعيـش اليومـي.

وإذ نهنـئ الفائزيـن بالجائزتـين الأولى والثانيـة، فـلا يفوتنـا أن نتقـدم بخالـص التقديـر والاحـترام إلى أعضـاء لجنـة القـراءة الذيـن تجشـموا عنـاء قـراءة المجاميـع القصصيـة، وافتحاصهـا، وفـرز الفائـز منهـا، ونحـن نعلـم مـا تتطلبـه هـذه العمليـة مـن جهـد ذهنـي، ومسـؤولية، ودقـة، فجزيـل الشـكر للأسـاتذة الأجـلاء: القـاص محمـد الشـايب (مـشرع بلقصـيري)، والقـاص/ الباحـث حسـام الديـن نـوالي (خنيفـرة)، والقـاص/ الباحـث سـعيد مـوزون (تنغـير). كـما نحيي كل الأيـادي البيضـاء التـي كان لهـا الفضـل في اسـتمرار هـذه الجائـزة.

فإليـك أيهـا القـارئ العاشـق لفـن القصـة نقـدم «صرخـة القيامـة» و«أسـماك لا تجيـد السـباحة»، ومعـك نوقـع عهدنـا وعزمنـا عـلى الاسـتمرار في تعزيـز المكتبـة الوطنيـة بتجـارب جديـدة ومتفـردة في القصـة المغربيـة تسـتحق القـراءة والمواكبـة النقديـة.

فاطمة الزهراء المرابط

الراصد الوطني للنشر والقراءة

طنجة في: 12 مارس 2021

سقوط مدو لعنكبوت

تسـلل القلـم ليـلا مـن محفظتـي، ارتـدى ورقـة عـذراء مخيـف لونهـا، غطـس في مخيلتـي عميقـا، فسـقطت في فـخ التفكـير مـرة أخـرى.

كلبنـا يـأكل الفضـلات، يقتـات عـلى النفايـات ومـا يلفظـه المنـزل مـن بقايـا، ومـع ذلـك لونـه مـشرق وشـكله جميـل يثـير كل كلبـات الحـي. يتلقـى ركلات الغضـب عندمـا يستشـيط في البيـت، لكنـه يحافـظ عـلى هدوئـه. يمـارس مهامـه بـكل وفـاء، لا يتخـاذل، لا يبحث عـن أعـذار واهيـة تريحـه عنـاء مراقبـة البيـت ليـل نهـار. سـجله الوظيفـي فـارغ مـن الشـواهد الطبيـة والمماطـلات الفارغـة. مسـاره المهنـي عـذري، يذكـرني بموظـف يتقاعـس في عملـه بسـبب مشـاكل السريـر مـع زوجتـه، وصديقـي الـذي يغـادر العمـل يـوم الجمعـة لأداء فريضـة الصـلاة ويهجرهـا طيلـة الأسـبوع، فأتبعـه لأراقبـه.

أشـعر كأن جسـدي يتقلـص كلـما فكـرت خـارج الإطـار، كلـما حاولـت أن أكـون غـير مـا أرادتنـي القواعـد، سـأختفي يومـا مـا لـو لم أتوقـف. لكـن إلى ذلـك الحـين سـأفكر، سـأعيش الـدور ولـو عـلى حسـاب القالـب، وسـأخلع الجلـد رغـما عـن أنـف الجسـد. تعمـق القلـم أكـثر فأكـثر.

دجاجتنـا العجـوز تتنـاول الـدود، الحـشرات، الحبـوب الفاسـدة التـي تسرقهـا أمـي مـن مخـزون حبـوب والـدي، وتتحمـل رائحـة ديـك الجـيران النتنـة كلـما امتطاهـا برعونـة امتطـاء ديكتاتـور لكرسي

الحكـم، لتبيـض بيضـا غنيـا بالبروتـين. لم يسـبق لي أن سـمعتها تنـق رثـاءً لحالهـا. مثـال يجـب أن ينقـش في ذهـن الأسـتاذة التـي تركتنـا في منتصـف السـنة تائهـين، بحجـة الذهـاب إلى العمـرة، ضيوفـا غـير مرحـب بهـم في حجـرات درس أسـاتذة آخريـن. لـو كانـت دجاجـة عـلى الأقـل، لكنـتُ الآن كاتبـا باللغـة الفرنسـية، أتنقـل بـين المهرجانـات الفرنكوفونيـة، أعشـق وطنـي بجنسـية مزدوجـة، عـوض الاحـتراق بـين «كان» وأخواتهـا بـدون أيـة ذرة وطنيـة.

حمارنـا الأشـهب يتنـاول الأعشـاب الضـارة، الشـوك، الصبـار، بقايـا الخـضر والفواكـه، يـشرب ميـاه الـواد الحـار، ومـع ذلـك جسـمه سـليم، يتحمـل مشـقة تفـوق مشـقة سـيزيف، يسـاعد الكلـب في مهـام الحراسـة، يحفـظ الطرقـات مـن أول وهلـة أفضـل مـن مهنـدسي الدولـة المرتشـين، ولديـه اسـتعداد دائـم أن يتحمـل وزر أخطـاء البـشر.

خـرج القلـم مـن مخيلتـي ملطخـا بالأفـكار الميتـة، أخـذ فسـحة قصـيرة، وأعـاد ارتـداء ورقـة جديـدة وعـاد إلى السـباحة في ذهنـي.

قطتنـا الشـقراء تتنـاول الفـئران والجـرذان والسـمك الكريـه، ومـع ذلـك فروهـا ناعـم، رائحتهـا زكيـة، بالرغـم مـن أنهـا لم تـزر مصففـة شـعر أو خبـير تجميـل، ولم تدفـع واجـب الاشـتراك في مجلـة نسـوية للموضـة، تحافـظ عـلى لمعـان وجههـا بلعقـه بعيـدا عـن الكريمـات الباهظـة الثمـن. تمنـع الحـشرات والثعابـين مـن ولـوج المنـزل، وتزيـل التوتـر والشـحنات السـلبية عـن أهـل البيـت أفضـل مـن طبيـب نفـسي، توقفـت معرفتـه الطبيـة في مضاجعـة الزبونـات. لـو كان قطة مثـلا، لمـا اختـار اسـتعمال مريضاتـه لمـداواة كبتـه الجنـسي ولمـا أحرق قسـما مقدسـا لم يفهمـه.

لم أعد أشعر أنني نفس الشخص الذي قرر ذات يوم ممارسة هذه الرياضة المتعبة، جسدي يشبه مسخ كافكا، أكثر خشونة من ذي قبل، وأصغر من أن يتحمل كل هذا العبث، لكن لا بديل عن المقاومة (الطاهر لبيب). أحكم القلم رباطة جأشه، وصرخ كصرخة القيامة: «عد»، فعدت إلى التفكير مرغما لا بطلا.

شجرة التين التي زرعها جدي خلف المنزل، ظلت شامخة طيلة السنين تحكي للعصافير عن حقبة «النية»، تطعم الحي كله بتين يشبه فاكهة الخطيئة، خطيئة الحب التي مورس تحت أوراقها الشامخات. رغم أنني حاولت مرارا قتلها بوضع مسامير صدئة في جذعها، إلا أن حب جدي، والخوف من مخالفة وصاياه، حتى وهو ميت، جعلها تصمد أكثر من صمود أرمل(ة) بعد موت زوجته(ها).

بقرتنا السوداء تقتات على الحشائش، رغم جسدها الهزيل، لم تتوقف عن إمداد العائلة بالحليب كأم حنون تفكر في مصلحة أبنائها قبل مصلحتها. لو كانت رأسماليا جشعا، لتوقفتْ عن إنتاج الحليب مجانا، ونهجت الزيادة في الثمن لتضخم رصيدها البنكي على حساب دماء الفقراء، فشكرا لها، وتبا للجشع.

كدت أن أفلح في التوقف، لكن القلم استدار، ومسح بمؤخرته فكرة التوقف من ذهني، فدخلت في غيبوبة فكرية.

كبشنا الصردي يمشي بين القطيع بشموخ، يحاول أن يكون مثالا في التضحية ونكران الذات بالرغم من علمه المسبق أننا سنذبحه في عيد الأضحى. لم يفكر يوما في الجلوس في ركن من الإسطبل وانتظار السكين بالدموع كالجبناء. قرر مواجهة الموت بالخلود في ذهن رعاياه، وأن يمارس دوره كقائد حتى آخر نقطة

دم كي يستمر القطيع قويا بعده، يذكرني بقائد عربي... صراحة، لا يذكرني بشيء، لا أريد لأمي أن تصبح أم سجين، ومادة إعلامية تتهافت عليها المنابر الخبزية.

العنكبوت الصغير الذي يسكن غرفتي، بالرغم من أنني أحاول دائما قتله، يحرسني من الحشرات الأخرى، وينسج خيوطه حولي كي أتمتع بنوم مريح. لطالما استرقت النظر من أسفل الغطاء لأشاهده يبذل جهدا مضاعفا لطرد الناموس من الغرفة، أو يحاول لسع الوزغ. لقد اكتشفت مؤخرا أنه المسؤول عن الأغنية الجميلة التي أسمعها في أحلامي، يشبه كثيرا صديق دوستويفسكي. سُمه لا يساوي شيئا أمام حقدي البشري على الكائنات الأخرى. لطالما حلمت أنني وهو شخص واحد، ربما نكون كذلك، فيكون هو حلمي، وأكون أنا كابوسه المخيف.

الصخرة الضخمة خلف المنزل التي تشبه وجه موظف متقاعد، لطالما اعتقدت أن وجودها عبثي كوجود الموظف، مقززة حتى الاشمئزاز، حتى اللحظة التي أصبت في مقتل بسهم أفروديت. تحولت الصخرة إلى منبر أتخده لأنظم القصائد الرديئة، أو أتقمص دور عاشق في قصة مملة. لم أسمع أنينها يوما، أو تدمرها من رائحة مؤخرتي التي تلتصق بها كالعلكة الجافة.

الكل حولي يقاوم الصعوبات ليؤدي دوره على خشبة الحياة بتفانٍ، إلا أنا، أتناول أطعمة أفضل من الكلب، لا أتحمل المشقة مثلما يتحملها الحمار، ولا رائحة نتنة كالدجاجة، لا أحمل شخصا فوقي لينسى لوعة حب مثل الصخرة، وأتقاضى أجرا عن عمل لا أقوم به. كما أنني لا أنتج شيئا كالبقرة وليست لدي الشجاعة لقيادة حتى غرائزي الشاذة. أستنزف الوجود حتى الثمالة

معتقـدا أنـه بتفاصيلـه الكبـيرة والصغـيرة وجـد لأشـبع كسـلي بعتـه أنطولوجـي (جملـة سرقتهـا لحبيبتـي السـابقة). لا أتدخـل إلا لأفسـد اللوحـة كلـما نضجـت، وأغـير التاريـخ مرضـاة لنرجسـيتي المرضيـة، فأحـاول جعـل الكـون يتمـدد عـلى مقـاس أحلامـي العرجـاء، وأطالب الجميـع بالسـجود للصنـم الـذي يسـكنني، غـير آسـف. تخنقنـي أمنيـة عجيبـة كلـما صحيـت: لمـاذا لا أكـون لونـا مـن ألـوان اللوحـة لا مدمرهـا!؟ لمـاذا لا أكـون العنكبـوت مثـلا...

خـرج القلـم عاريـا، يـكاد يختفـي مـن هـول الصدمـة. كتـب عـلى الفـراغ آخـر جملـة لـه قبل الاختفـاء: «كـن عنكبوتـا». بدأت أتسـلقُ حائـط غرفتـي معتمـدا عـلى أرجـلي الثمانيـة وأقدامـي المجهريـة وشـبكتي العنكبوتيـة المتينـة. اندمجـتُ ووضعـي الجديد، نسـيت كل القيـم والمبـادئ التـي كانـت تجعـل منـي مخلوقـا مدمـرا. لكـن، قبـل القمـة بفسـحة تفكـير، سـقطت سـقطة مدويـة نحـو القـاع، كـسرت اللوحـة وشـكلي الجديـد، وعـدت إنسـانا مـرة أخـرى بـلا فائـدة، وهجـرت التفكـير كـما فعـل أجـدادي سـابقا. وقـررت شـن حـرب عـلى الأقـلام العاهـرة.

العبث المقدس

بـردتُ سـني الأماميـة البـارزة مثـل جـزرة في فمـي حتى غـدت مثل فـأس، انتظـرتُ حتـى تجمـدت دمعة ذرفتهـا ذات خيبـة وتحولت إلى يـد، زاوجـت بينهـما بنزيـف يعيشـني داخـل حـي هامـشي، ونويـتُ الاسـتعداد للهنـاك كأننـي أعشـقه. ربمـا لا أعشـقه، لكنـه الجنـون يريـدني عاريـا مـن المنطـق، تخطيـت «گلثـة» حـبر متناسـيا الوصايـا العـشر للوالـدة، فلعنـتُ بالسـجن بـين الدفـوف، أعيشـه في ذوات ورقيـة منتظـرا الحريـة ولـو مـن دخـان.

خرجـتُ ليـلا والنـاس يعيشـون واقعهـم غـير الممكـن عـلى أسرة كافـرة بالوجـود، لم يكـن غـيري مسـتيقظا، ربمـا. نـام الشـاعر بعدمـا تأخـرت النجمـة عـن الأفـول كي ينظـم نصـا، نـام الـروائي عندمـا لم يسـعفه شـيطانه كي يتقلـد بغبـاء إبداعـي منصـب الخلـق، نـام الموسـيقي بعـد أن اسـتعصى عليـه سـماع عزفـه، شـاخت أذنـه بأبواق السـيارات، لـو كانـت لديـه فرشـاة فـان كـوخ لمـا سـجن في تلـك الورطـة، سـقط الشـاب في البحـيرة معتقـدا أن ماءهـا أنثـى فورطـه الشـهود بتاريـخ مزيـف وأُلصـق اسـمه بالمـرضى النفسـيين، نامـت الدعـوات بعدمـا اكتظـت السـماء بغـزل البنـات ونـام التاريـخ القـواد عندمـا وصـل إلى فصـل البؤسـاء... واسـتيقظت «أنـا»، كي أعيـد بـث الضجيـج وسـط الروتـين الصامـت.

تأبطـتُ فـأسي العاجـي، ومنجـلا تركـه جـدي لنـا كمـيراث متعـب، لا يشـبه منجـل ماركـس الـذي باعـه كاسـترو للجشـع، ولا منجـل

ملك الموت الذي ينزع به أرواحا نضجت، منجل صدئ يؤرخ لفترة ما قبل البشاعة. حملت مطرقة صدئة تشهد على طلاق العائلة بالثلاث من السعادة، تشبه مطرقة «ثور Thor»، أحاول التخلص منها، من بؤسها، أقذف بها نحو النسيان، فتلتف حول الأرض بسرعة التنهد وتعود صلبة لتدمر كياني الهش. لا تشبه مطرقة الشيوعيين التي باعوها لجلاد إقطاعي كي يكسر بها رأس الثوار الجياع. أخذتُ معي قلما، أهدته لي من تسببت في حمى الإسهال على القرطاس ذات رجفة عشق، من قزّمتني حتى تحولت إلى مقتات على الخيال، من جردتني من واقعي. قلم أهملته بسبب الذكرى، فقرر التمرد على طريقة فناني «RAP»، عوض أن يكتب عن حيوات أعيشها أو أتخيلها، بدأ يسافر داخل ذاتي الضيقة، منتعلا طريقة «Ego Trip» التي ينهجها مؤدي الراب «Mc» عندما يقرر أن يكون العارض والجمهور والموضوع في الوقت نفسه.

بما أنني أخذت القلم اللعين لا بد من ورقة. ولتكن ورقة عذراء لا تشبه تلك التي تنتظر المستعمر الذكر كي يفتحها بسيفه، فارغة تلخص كل السنين الطويلة التي عشتها محاولا الإجابة عن سؤال: من أنا؟ امتلأت الورقة البيضاء بالفراغ ولا إجابة ولو وهمية عن السؤال الوجودي. لستُ درويش كي أكون لاعب نرد أتدحرج مع وجوه المربع، ولا شكري كي أغرد كشحرور يكسر الطابوهات، ولا نزار كي أنتحر بين ثديي حبيبتي، ولا سارتر كي أتراجع عما قمت به نحو سكان الصفحات المذهبة. ليست لدي الشجاعة كي أقتل نملة تلسعني، فكيف أقتل إلهاً استعبدني كالفيلسوف؟

وجـدتُ دون لحيـة أملـط الوجـه كصديقتـي، صـوتي خشـن عنـد الاسـتيقاظ ورقيـق بقيـة اليـوم مثـل نسـخة بشـعة للسـيدة فـيروز، لا أسـتطيع الـصراخ بحماسـة: «يـا عـمال العـالم اتحـدوا»، ولا أن أؤذن كي تـرص الصفـوف للصـلاة، أو أن أقـوم بـدلا مـن ذلـك بالنفـخ في بـوق الوجـع لأعلـن قيامـة قبـل أوانهـا. يـدي مغلولـة بقيـد عائـلي اختـارني بعنايـة كي أكـون سـيزيفهُ، أتكاسـلُ عـن رفعهـا لحـك رأسي مـن الأفـكار الضـارة، كيـف أرفعُهـا لأدق جـرس النهايـة؟

شـاربي خشـن كقنفـذ، ورطـب كحلـوى أعيـاد الميـلاد، لم يسـعفني كي أنشـد أنشـودة أمازيغيـة، ولا أنشـودة الانبعـاث مـن الـركام، أو حتـى ترنيمـة مـوت الـرب.

دخلـت الروضـة بكامـل قـواي البدنيـة وبعـض مـا تركـه تعاقـب الصدمـات مـن قـواي العقليـة. حفـرتُ حفـرة مسـتطيلة، طولهـا مـتر ونصـف وعرضهـا شـبر فقـط، لا أريـد أن أكـون مكلفـا عـلى المـوت، المسـاحة تكفـي كي أتعفـن ويجـد الـدود وجبـة فطـور في انتظـار أن يمـوت الغـداء. لا أحتـاج كفنـا، ثمنـه باهـظ وعطـوره مكلفـة، وأنـا أريـد معانقـة الـتراب، أريـد العـودة إلى الأصـل دون حجـاب، وأشـعر كـما شـعر آدم عندمـا عانـق خطيئتـه، إني أريـد الاقـتراب مـن الـكاف والنـون قليـلا.

أخرجـتُ كتـاب جيـب كنـت أحتفـظ بـه دائمـا، لم أجـرؤ عـلى قراءتـه يومـا، شـعرت أنهـا اللحظـة المناسـبة للقيـام بذلـك، وقـرأت بعضـا منـه:

«... دخـل عـلى صديقـه بعدمـا اعتقـد أنـه نسـيه، خادمـك اليـوم عـدوك غـدا، وقـال:

- أنت السيد الملك؟

قال الملك:

- نعم...

قال الصديق:

- كـما كنـت تـردد دومـا، سـأقلب السـحر عـلى السـاحر «كـش ملـك...»».

أقفلـت الكتـاب، تخيلـت نفـسي ملـكا وصديقـا في الوقـت نفسـه، اليـوم سـأقرر أني سـأقوم بـ«كـش ملـك» لنفـسي، لمـاذا لا أكـون ملـكا؟ مـاذا ينقصنـي؟

مملكتـي مـن طـين أذابتهـا شـتاء دمـوع الأمهـات، وجيـشي سـواعد شـاخت مـع تجاعيـد وجـوه الآبـاء. لـدي جيـش مـن حبيبـات سـابقات ينعمـن في أحضـان رجـال آخريـن بعدمـا علمتهـن قواعـد الحـب والرمايـة وركـوب الخيـل، أطفـالي ملايـين تعيـش في الخـلاء كالظبـاء، لا ينقصنـي إلا القليـل مـن السـلطة عـلى غرائـزي لأكـون حاكـما شرعيـا.

«هنـا يـترك الصديـق صديقـه» عشـت سـنوات أحـاول إرضـاء أنـاي التـي ولـدت بهـا، سـأكمل المشـوار وحيـدا، دون الأنـا التـي ورثتهـا. شربـت مـن قنينـة إكسـير الحيـاة تعـده والـدتي للطيـور حتـى ثملـت، وأكلـت برتقالتـين ذابلتـين كي أحيـي خطيئـة الوجـود داخـلي. قبـل رحيـلي، ليخـبر خيـط الدخـان الـذي ينبعـث مـن فمـي دافئـا العنكبـوت صديقـي أننـي أسـف، لم أنجـح في تعلـم طريقـة نسـج خيوطـه كي أبنـي للفقـراء منـازل تقيهـم قسـاوة العيـش. ولتخـبر نظـرات المـوتى المتعجبـة كلبتنـا الجربـاء أنهـا أجمـل أنثـى قابلتهـا في حيـاتي، ولـولا الـداء اللعـين الـذي أخذهـا صغـيرة، لمـا عرفـت بعدهـا مخلوقـة أخـرى.

أخـذتُ الورقـة والقلـم مـن جيبـي، كتبـت بخـط يشـبه خطـوط نظـرات العشـاق، بحـبر مالـح، مـا يـلي:

«أنا السيد الميت، قررت اليوم، غير آسف، العيش كذلك...».

وانغمسـت في الحيـاة (القـبر) عاريـا مـن كل الهويـات، هجـرت أقنعـة كوفـمان غـير مهتـم بـأي شيء، أقـدس أمـي فقـط... والعبـث.

ظل ثعبان

سـأقتلع أنيابـه في المـرة القادمـة، هكـذا تكلـم الشـخص الـذي يتقاسـمني معـي. لا يمكـن أن أسـتمر في حصـد الهزائـم أمامـه، اسـتنزفت طاقتـي لألعـب دور الضحيـة وأتقبـل الهزيمـة مثـل صوفي-قـدري. سـأنهي وجـوده الرمـزي لأنـه لم يقبـل تضرعـي السـلمي بـأن يتركنـي وشـأني، وأدمـره حتـى لـو كان عـلى حسـاب سـلامتي العقليـة، هـل يوجـد عقـل في جسـد تسـكنه عـدة ذوات؟

في إحـدى الليـالي الماضيـة، كنـت قـاب قبضة مـن خنقه، لكـن الليل شـاء أن ينجـلي قبـل أن أغـرس أصابعـي في رأسـه، اختفـى الليـل رأفـة بحالـه لا اسـتجابة لتأوهـات العشـاق. بـدا لي تلـك الليلـة أضخـم مـن قبـل، جلـده أكـثر سـمكا، تضاعفـت خفتـه وزادت رشـاقته، يزحـف بانسـيابية الدمـع عـلى خـد حوريـة شـقراء. ربما تمـرن كثـيرا ليواجهني بعدمـا سـجلت عليـه نقطـة لصالحـي ذات نـوم. آه، لازلـت أتذكـر ذلـك النـصر الوهمـي الحلـو كانتصـار مظاهـرة سـلمية تواجـه جيشـا مدججـا بالأسـلحة، كـما أتذكـر أسـماء حبيبـاتي السـابقات، ولأننـي أنتمـي إلى ثقافـة تعيـش عـلى الوهـم وتتلـذذ بـسرد الانتصـارات الزائفـة، ضروري أن أخـترع انتصـارا وهميـا أيضـا كي أرضي الـ«هُـم» الـذي يسـكنني وأشـفي نفسـيتي المتورمـة بالهزائـم. بعـد يـوم هيتشـكوكي، لم أكـن في حاجـة إلا إلى النـوم. مـا إن وضعـت رأسي عـلى المخـدة، وانتقلـت إلى عـالم الرمـز حتـى بـدا لي قادمـا نحـوي، متثاقـل الزحـف، يتطايـر شـعره بشـكل هوليـودي، ويلـوح بلسـانه ذات

اليمين وذات الشمال ليصنع زوبعة طاحنة، يصدر فحيحا يبث الرعب في النفس، كلما اقترب أشعر أن نبضاتي تتسارع، قلبي المنهك بالحب الخائب على وشك أن يصرخ صرخة القيامة قبل الآوان. سلمتُ له نفسي دون مقاومة، ما نفع المقاومة والهزيمة مقدرة؟ وضع أنيابه على رقبتي، دخلتُ في غيبوبة بفعل التعب وقناعتي المطلقة بلا جدوى المقاومة. اصطدم مرفقي بعينه وأنا متجه نحو الأرض، وقذفت به، صدفة ودون أي رغبة مني بعيدا، فتلاشى في الفراغ كأنه لم يكن. لم يسبق لي أن شاهدته، منذ أن تملكني، يفر مهزوما، الحقيقة لم أهزمه، شاء القدر أن ينوب عن نائم كسول ويهديه انتصارا كاذبا. لو وضعوا الشمس والقمر في كفة وفرحتي عندما استيقظت في كفة لمالت كفتي دون أي تأرجح. أمضيتُ لياليا طوال منتشيا بالنصر الذي لم أحققه. وددت إخبار الجميع، منعتني تهمة الجنون التي تتربص بي في المجامع، فقررت الصمت كي لا أدق مسمارا أخيرا في النعش الذي سيحملني إلى المارستان.

ما فتئت أنعم بالراحة النسبية محتضنا كوابيسي الروتينية، حتى رجع الثعبان أقوى من السابق. تسلل من بين الذكريات والمشاريع التي لم أحققها. وظهر مرة أخرى بقوة رمزية إعجازية، أكثر صلابة من قبل.

يعادل النوم بعد يوم بئيس نجاح محاولة الانتحار لشخص كئيب، رتابة متعبة خلفها لقاء بمجموعة مثقفين نمطيين يتصرفون ميكانيكيا كآلات سيئة الصنع، وجدتني بينهم مضطرا الصمت على غير عادتي كي لا أكسر أصنامهم التي شيدوها ببؤسهم، تحول الصمت ليلا إلى ضجيج داخلي أنهكني، فسقطتُ فوق السرير

كسـقوط تمثـال رئيـس عـربي بعـد صرخـة ظلـم. فجـاءت سـكرة التعـب بالحلـم (الثعبـان)، لم تكـن لـدي ذرة قـوة لأصارعـه، فقـررت الجثـو عـلى ركبتـي كجنـدي مستسـلم:

- أيهـا الثعبـان العظيـم، هـا أنـا بين يديـك خاضعـا، مذلـولا، اتركني وشـأني، أريـد أن أنـام، لقـد تعبـت، لمـاذا تتكالـب مـع القـدر عـلى بقايـا روح؟

لم أتمـم خطبتـي الانهزاميـة حتـى انقـض عـلى عنقـي، لم يكـترث لتضرعـي، يشـبهني كثـيرا في عـدم الإنصـات، غـرز أنيابـه عميقـا حتـى اصطكـت ببعضهـا البعـض.

اسـتيقظت مفزوعـا، أشـعر بـآلام عضتـه كأنهـا حقيقية، ومـن يدري ربمـا يكـون الواقـع هـو الحلـم والحلم هـو الواقـع، أو كليهـما أضغاث أحـلام في رأس ميتافيزيقيـة. ومنـذ ذلـك الحلـم قـررت المقاومـة. لم يـترك لي حـلا آخـر غيرهـا. لملمـت طاقتـي وصرخـت معلنـا انطـلاق المعركـة: مـا هـذا بحـق السـماء: حيـاة مـن ورق، وأحـلام كالمقـص!؟ المـوت مقاومـا خـير مـن العيـش مذلـولا.

منـذ تلـك الليلـة وأنـا أصارعـه بـكل مـا أوتيـت من قـوة، أشـعر كل يـوم أننـي عـلى مرمـى شـفة مـن عضـه، لأغـرس فيـه سـني البـارزة عميقـا كـما يفعـل، وأبـث فيـه سـمي، أحـزاني، آهـاتي، احتراقـي، فشـلي الأنطولوجـي والشـعر الركيـك. سأشـل حركتـه، وأطـرده نهائيـا مـن جـدول كوابيـسي، بعيـدا إلى الهنـاك حيـث اللاعـودة.

كانـت خيبتـي كبـيرة عندمـا توقفـت زياراتـه بعدمـا تعـودت مبارزتـه كل ليلـة. لـولا الفتـاة التـي وضعهـا القـدر في طريقـي مؤخرا، مـا كنـت لأنسـاه، كان مؤنـسي رغـم كل الأضرار التـي يتسـبب فيهـا، عـدو مهتـم خـير مـن صديـق غـير مكـترث.

لـولا الـروح التـي أعـادت الفتـاة نفثهـا في يوميـاتي لقصـدتُ مفـسر أحـلام لأقتفـي أثـره مثـل فيلـم «Inception» مـن حلـم إلى حلـم حتـى أجـده، مـلأت السـمراء الفـراغ القاتـل الـذي خلفـه وراءه بمـا يناسـب، شـعرها الغامـق عـوض شـعره الأشـقر، ابتسـامتها القاسـية عوضـت أنيابـه البشـعة، صوتهـا الناعـم عـوض فحيحـه المفـزع، وقبلاتهـا الشـهية عوضـت سـمه القاتـل. بالرغـم مـن أننـي أمقتـه، افتقـدتُ معـاركي معه، افتقـدت هزائمـي المتتالية، وفرحتـه بالفوز كل مـرة كطفـل، كنـت سـأفتقده أكـثر لـولا ظهورهـا في حيـاتي.

اقتنعـتُ أننـي تخلصـتُ منـه نهائيـا. رحـل وحمـل معـه سره، هـذا مـا كنـت أعتقـده حتـى اللحظـة التـي قـررت حبيبتـي كـسر الـسر، وإعادتـه إلى الحيـاة مـن منفـى النسـيان، قـررتْ أن تعيده إلى المشـهد بعدمـا نسـيه الجمهـور. أخبرتنـي ذات اسـتراحة حـب لتمـلأ الصمـت القاتـل بـين القبـل، أن ثعبانـا يزورهـا كل يـوم، منـذ اللحظـة التـي أعلنـتُ لهـا عـن حبـي، ثعبـان ضخـم ينظـر في عينيهـا ويرقـد فـوق ثدييهـا إلى الصبـاح، دون أن يعضهـا أو حتـى أن يحـاول. تأكـدتُ أنـه الثعبـان الـذي أعرفـه.

يـا لسـخرية القـدر! عرفـت هويتـه أخـيرا، إنـه آخـري الشـخصي، حبـي الـذي كنـت أحتفـظ بـه حتـى تـأتي مـن تفـترش لـه صدرهـا، السـم الـذي كنـت أطبخـه لأنفثـه في أفروديـت. إنـه أنـا الثعبـان. كان الحـل هـو أن أقبلهـا كل يـوم لأخلصهـا مـن سـم يضعـه فيهـا كل ليلـة، ربمـا أكـون أنـا مـن أضـع السـم فيهـا بقبـلي وهـو يعالجـه ليـلا بالتريـاق.

ضربة نحس

لم يكن ككل عزاءاتنا، تقليدية الشكل وحداثية المصاريف، بالرغم من أنه ينتمي إلى نفس الصنف. لقد كُسر النمط بسبب ميتة سي التهامي الغريبة، عاش غريبا ومات كذلك. تكلف الجيران بالصوان واقترضوا بعض بائعي كلام الله من الروضة القريبة، روضة مولاي ابراهيم، تبرع صاحب الدكان البخيل بعشرات قناني ماء الزهر وبعض المناديل الورقية. قُرئ القرآن الكريم قراءة ممزوجة بالشاي والحلوى التي أعدتها لالة كلثوم، آيات الجحيم والعذاب والوعيد تخرج حلوة ممزوجة بالكوك والمربى من أفواه الفقهاء، كان الجوع أكثر إيمانا مما يتلى بطريقة موسيقية رديئة. في البداية كان العزاء نمطيا، يشبه أي عزاء سابق نظم في الحي، وفي غفلة من الجميع قررت يد خفية أن يتحول إلى عزاء تاريخي، فأخذتْ الأحداث منحى مختلفا تليق بسمعة الميت، وتشبع انتظارات الفضوليين الذين جاؤوا ليشمتوا في سي التهامي.

كان التُهامي كآخر صورة عالقة في ذهن الحي، رجل ستيني، ملامحه متآكلة منذ الطفولة، ابتسامته جوفاء كقلب مصاص دماء، تساقطت أسنانه بسبب اصطكاكها ليضخ الشجاعة في بندقيته، فقئت عينه اليمنى بسبب رصاصة طائشة كانت تنوي إصابة قلبه في حرب عالمية لا ناقة له فيها ولا جمل، يداه ترتجفان دون برد بسبب الخوف الذي راكمه في ساحة الوغى، صنديد لا يحب الخسارة بالرغم من أنه مكتظ بالهزائم. لم يكن ليعتبر كل ذلك

خسارة لولا أن صدم بحفلة ضخمة من الخيانات تنتظره عندما عاد من الحرب، خانه وطنٌ دافع عليه وخاض حرب رمال لازالت عالقة في عموده الفقري، تأبى أن تتطاير لتتركه يستوي في وقوفه كغيره من البشر، خانته عائلته الصغيرة بعدما اكتشف أن السبب الذي كان يقاوم رصاص العدو من أجله لا تربطه به إلا تلك الدراهم التي اختفت بعدما حصل على تقاعده العسكري، خانه أصدقاؤُه عندما لم يعد لديه ما يدفع به قهوتهم، خانه احترام الحي لأنه تحول إلى التهامي فقط بعد أن كان الشاف التهامي، وخانته السماء التي أوهمته أن الحياة تستحق كل ما قدمه من تضحيات، كانت الرصاصة أكثر رحمة من واقع علق آماله عليه.

ساد صمت طويل العزاء مبشرا بزوبعة قادمة لتكسر النظام. في لحظة فراغ لم يأخذ أحد الحضور المبادرة ليرمي نقوده في آلة الدعاء المتشكلة من أربعة أشخاص يقرؤون القرآن بطريقة تشبه تلاوة الإنجيل في يوم أحد بكنيسة مهجورة، استولى حلاق الحي على الكلام، الرجل القصير الذي وجد نفسه من بين الحضور طامعا في الكسكس لا في رثاء الميت. تخيل الحلاق نفسه يقص شعر الجميع وأطلق العنان لهوايته، اللغو دون جدوى، معتاد على هتك الأعراض بلسانه السليط كمقصه الحاد. تبادل الجميع نظرات امتعاض، كل واحد يلوم الآخر لأنه لم يتصدى للحلاق الممل. لكن الخوف من الصمت في عزاء شخص غريب، يعرفونه حق المعرفة كان أقوى من الرغبة في إسكات الحلاق، فسلموا له آذانهم صاغرين:

- سي التهامي مسكين، (يقول الحلاق) كانت حياته مثل بغل

يجـر عربـة بـدون عجـلات، كان يحـاول أكل صخـور الحيـاة بفـم بلاسـتيكي.

أنـزل الحـلاق بضـع دمعـات ليلمـع ملامحـه اسـتعدادا للانطـلاق كالسـيل الجـارف في حكيـه بعدمـا تأكـد أن الجميـع ينصتـون، ولأنـه يعـرف كـما يعرفـون، أن لا أحـد كان يطيـق التهامـي في الحـي، لـولا العـرف والتقاليـد لانصرفـوا عنـه وتركـوا جثتـه للـكلاب:

- مازلـت أذكـر، (يكمـل الحـلاق قصـه المـمـل) عندمـا قـام بمحاولـة الانتحـار الأولى بعدمـا اكتظـت أيامـه بالبـؤس، اقتنـى حبـلا، لا أعلـم مـن أيـن اقتنـاه..؟ (أضـاف الحـلاق هـذه الجملـة ليـبرئ نفسـه)، وأحكـم ربطـه بسـقف غرفتـه القصديـري، لكـن المنحـوس منحـوس حتـى في موتـه، سـقط السـقف وانهـارت الغرفـة. عـوض أن يغـادر شـقاء الحيـاة إلى راحـة المـوت حسـب اعتقـاده، غـادر السـقف الـذي يأويـه وتحـول إلى متـشرد، فـزاد، دون رغبـة منـه، الملـح في جرحـه الوجـودي. واضطـر أن يتعايـش مـع الجبـس في يـده ورجلـه لشـهور.

توقـف الحـلاق ليتـزود بالمـاء ويتحسـس تأثـير قصتـه في وجـوه الحضـور وأكمـل دون أن يُـؤذن لـه:

- المـرة الثانيـة، اقتنـى الـسي تهامـي قنينـة سـم تقتـل الأعشـاب الضـارة التـي تتلـف الخـضراوات.. الخضـار مـن أخـبرني بذلـك.

قاطعه خضار الحي:

- لعنة الله عليك الكذاب...

تجاهلـه الحـلاق، قاصـدا أن يورطـه بسـبب عـشرة دراهـم حلاقـة مديـن بهـا لـه، وأكمـل:

- سـم «نواكريـس» يقـال عليـه أنـه «ضربـة بطلـة» للحيـاة، نفـس السـم الـذي قتلـت بـه يطـو زوجهـا الفقيـه الخائـن (رمقـه الـسي

أحمد المقرئ بنظرة امتعاض كي يغير الموضوع لأن في ذلك طعن في رمزية الفقهاء)، هو المستهلك الأول للباحثين عن الموت الرحيم بين صفوف الدراويش. شرب المسكين قنينة كاملة كي لا يدع مجالا للشك، ويستعد لملك الموت كفتاة تنتظر فارس الأحلام المخلص من قهر العائلة. وما هي إلا لحظات قبل الموت حتى فاجأه خبر في المذياع (أثاثه الوحيد) مفاده أن الشركة المصنعة للسم تعتذر للفلاحين عن نسيان أحد عمالها وضع المادة السامة في المنتج، وتعدهم أنها ستعوضهم عن ذلك مستقبلا، (حاول الحلاق إخفاء ضحكته لكن عيناه فضحتاه أمام الجميع). لم يكن لسي التهامي الصبر الكافي لينتظر إصلاح الشركة الخطأ. هل لاحظتم معي أن الجميع لا يريده، لا الحياة ولا الموت، حتى السم تحول إلى ترياق كي يستمر في عيش بؤسه.

لم يتوقف الحلاق هذه المرة بل قبض على الكلام كالمغتصب وأكمل هوايته في تعذيب الحضور:

- لم يبق له من طريقة إلا السقوط من أطول مبنى في المدينة، لا مجال هذه المرة لاحتمالات الفشل، حتى لو كان كائنا فولاذيا سوف يتشتت، لا حبل يعلق عليه آماله، ولا كسل عامل يجعله يستمر في عيش بؤسه.

صعد إلى المبنى، وفي الطابق الأخير تخيلوا ماذا وقع؟ اكتشف السي التهامي أن.. (لم يقوى الحلاق هذه المرة على إخفاء ضحكته، وجر معه الحضور إلى الدخول في هيستيريا من الضحك وسط مقام لا يليق بذلك). تفاجأ «المزغوب» أن العمارة بلا سطح، الطابق الأخير هو نهايتها، ربما نسي المهندس أن يأخذ في حسبانه أن أحدهم سيجعل منه ملاذه الأخير للحرية.

أخـذ الحـلاق فسـحة مـن أجـل أن يلتقط أنفاسـه ويطرد الابتسـامة مـن تقاسـيم وجهـه الحادة:

- بالرغـم مـن حظـه التعيـس اسـتطاع التهامـي أن يبلـور قبسـة أمـل بعـد فشـله في المـوت خـلال ثـلاث مـرات، عـزم عـلى أن يجمـع كل نقـوده، ويقمـر عـلى رقـم فـرس لعـل القـدر يصالحـه، ذبحـة أو ربحـة، بمـا أن المـوت لا يريـده والحيـاة متشـبثة بـه بشـكل أو بآخـر، لمـاذا لا يعاكسـها؟ لمـاذا لا يراودهـا عـن نفسـها؟

بـاع أسـماله الباليـة، لم يـترك إلا سروالا قصـيرا مهترئـا وقميصـا صيفيا بهـت لونـه بسـبب التقـادم. لعـب كل مـا يملـك عـلى فـرس واحـد كي يحصـل عـلى الجائـزة الكـبرى. آخـر تجربـة حـظ، لعلـه يخـرج مـن عنـق الحيـاة البئيسـة، كـما يقـول المثـل الشـعبي «غامـر أو غـادر».

- في المسـاء أعلـن مكتـب القـمار عـن فـوز التهامـي، (يكمـل الحـلاق حكيـه) لقـد شـاهدته وهـو يبـكي ويضحـك في الوقت نفسـه، كاد يجـن جنونـه، مـن بئيـس لا يملـك حتـى سـنتيما إلى ملياردير، إنه القـمار كـما يقـال، «بنـت المـكي مـرة تضحـك ومـرة تبـكي»، لقـد شـاء أن يبتسـم لـه، لقـد أصابـت رميتـه الأخـيرة الهـدف. قـضى التهامـي المسـكين الليلـة يفكـر في الطريقـة التـي سـيصرف بهـا نقـوده، كانـت لديـه رغبـة جامحـة في الانتقـام مـن ماضيـه، لكـن القدر لعـب لعبته مـرة أخـرى.

- نـام التهامـي ومـات... عـاش التهامـي فقـيرا، بئيسـا، ومـات ملياردير دون أن يـصرف سـنتيما واحـدا مـن ثروتـه...

لم يكـن الحـلاق سـيتوقف لـولا أن أوقفـه أحـد الجـيران الشـباب وقاطعـه بجملـة جعلـت الجميـع مندهشـين، وقلبـت العـزاء إلى عبـث يليـق بمـوت بئيـس كالـسي التهامـي:

- لقـد غفـوت للحظـات عندمـا كان ابـن العاهـرة (قالهـا في سره)، الحـلاق يحـكي كشـهرزاد ممسـوخة، وشـاهدت التهامي يرتـدي كفنه، يحمـل قنينـة مـاء حيـاة فارغـة، يستشـيط غضبـا، وفي يـده الأخـرى صخـرة مشـتعلة، تحـاول الملائكـة أن تسـيطر عليـه كثـور هائـج بـين أيـدي مجموعـة مـروضي الثـيران محترفـين، وكان يـصرخ بصـوت عـال: «أريـد فقـط أن أسـأل الإلـه: لمـاذا...؟».

العبوة

في مدينة تبعد عن مدينة «التعالوكس» الحالية بأعوام، وبعد تعاقب ثلاثة أجيال، جرت أحداث كثيرة تحت شمسها. وصلت الإنسانية ذروتها، وكادت المشاكل تختفي لولا بعض المطالب الجنونية التي تخرج بين الفينة والأخرى لتكسر الرتابة. اختلفت البنايات كثيرا على ما كانت عليه، لم يعد بإمكان البشر امتلاك المنازل، اليابسة تورمت بالبشر، وصل الاكتظاظ في بعض المناطق إلى درجة ترحيل الناس من مكان إلى مكان لضمان التوزيع الديمغرافي العادل في المساحة الصالحة للسكن. ألغت حكومة المدينة الملكية العقارية من أجل ضمان السكن للجميع. تحولت المدينة من مدينة صغيرة إلى وحش حضاري. تضاعف عدد السكان مرات ومرات، تطور المجتمع «التعالوكسي» كثيرا، تحول القانون المحلي إلى نسخة طبق الأصل لقانون حقوق الإنسان. نضج الإنسان في المدينة غير الفاضلة، تعلم أن يوقف وظيفة أنفه في استنشاق الهواء وإخراجه دون إقحامه في شؤون الآخرين. لكنها الحياة، دائما يخرج من داخل النظام من يكسره. جن جنون الجمعيات المدافعة عن الحريات الفردية وخاصة «الفيمينيست». بعد تحقق كل المطالب القديمة من كرامة وعدالة اجتماعية ومساواة...، كان لزاما أن تجد هذه الجمعيات مطالبا جديدة تسترزق منها.

بلغ الجنون أقصاه في رؤوس المنتسبين لجمعيات «الفيمينيست» إلى درجة المطالبة بإلغاء ممارسة الجنس مع الرجل.

- العملية انتهاك واضح لحقوق المرأة وقيم المساواة.

كـما صرحـت إحداهـن في مؤتمـر صحـافي حضرتـه جميـع المنابـر الإعلاميـة، التـي وجـدت في القضيـة مـادة إعلاميـة جديـدة لتمـلأ بهـا الفـراغ، واعتـبرت حركـة «الفيمينيسـت» العمليـة الجنسـية عمليـة لا متكافئـة، يلعـب فيهـا الرجـل دور المسـيطر المانـح، وتلعـب المـرأة دور الخاضـع المسـتقبل. قـررت عـلى إثـر ذلـك حكومـة العـالم تلبيـة المطالـب تفاديـا لمشـاهدة أجسـادهن البشـعة عاريـة في الشـارع مـرة أخـرى. ألغـي الجنـس بجميـع أشـكاله، وقُـرر الاكتفـاء بالتوالـد كعمليـة ميكانيكيـة لضـمان اسـتمرارية الجنـس البـشري، فارغـة المشـاعر والأحاسـيس، مـع الاحتفـاظ بالحـب عذريـا، عفيفـا، تحقيقـا لنبـوءة أفلاطـون بعيـدا عـن الاحتـكاكات الجسـدية، اللهـم بعـض القبـل التـي بـدأت تقـل حتـى اندثـرت. يقتنـي المتزوجـون عبـوات صغـيرة مـن محـلات تدعى «المكافِـت»، متخصصـة في بيـع الحيوانات المنويـة مبسـترة، بعـد شرائهـا مـن الفـلاح المنتـج لهـا. تحقـن العبـوة للمـرأة، تمـر فـترة الحمـل عاديـة ليخـرج بعدهـا الطفـل للوجـود، وكلـما دفعـت أكـثر حظيـت بسـلالة جيـدة. أسسـت وزارة منتدبـة تابعـة لـوزارة الاقتصـاد مـن أجـل تنظيـم عمليـات الإنجـاب ومراقبـة ظـروف إنتـاج وسـلامة المنتجـات مـن أجـل ضـمان إنتـاج جيـل متحكـم فيـه، يتـماشى مـع الـشروط الدوليـة، تـذوب فيـه الخصوصية الثقافيـة والنزعـات العرقيـة التـي ترجـع التاريـخ إلى نقطـة انطلاقـه.

نشـأ «عزيـزي» في أسرة فقـيرة، تـوفي أغلـب أفرادهـا خـلال طفولتـه بسـبب طفـح جلـدي. ترعـرع في دار الأطفـال حتـى المراهقـة، غادرها هاربـا مـن قيودهـا بعدمـا نضـج مفهـوم الحريـة داخـل عقلـه. اشـتغل لسـنوات طويلـة كعامـل منتـج للسـائل المنـوي داخـل ضيعة

فلاحيـة مسـتفيدا مـن خصوبتـه. الطفـح الجلـدي الـذي لم يقتلـه أحيـا الحيوانـات المنويـة داخلـه. كـد كثـيرا، أنتـج شـعوبا وقبائـل، أدخـل البهجـة عـلى الكثـير مـن الأزواج وأنقـذ عـدة علاقـات عاطفية مـن الفـراق بعدمـا تملكهـا الملـل والروتـين.

بـدأ عزيـزي يرتقـي في السـلم الاجتماعـي شـيئا فشـيئا حتـى تمكن مـن امتـلاك محـل لبيـع العبـوات المنويـة. تطـور المحـل عـبر الأيـام، تحـول إلى مكافـت أطلـق عليـه اسـم «مكافـت عزيـزي وشركائِـه»، والمقصـود بشركائـه زملائـه السـابقين في العمـل وأصحـاب نسـب مهمـة مـن أسـهم الحيوانـات المنويـة داخـل المكافـت: الموظـف بـإدارة المكافـت العموميـة، الحـرفي صانـع العـوازل الطبيـة التعيس، وبائـع ريـح الشرقـي، المفلـس، المحبوبـة أثنـاء الممارسـة.

يكـره صديقنـا عزيـزي ثلاثـة أشـياء، العنصريـة، النعنـاع، واسـمه. اسـمه الحقيقـي نوفـل الـذي اختفـى عندمـا قـرر اسـتبداله باسـم عزيـزي. اسـمه السـابق كرهـه عندمـا علـم أنـه لقـب يطلـق عـلى المثليـين في زمـن مـا.

مـا هـي إلا شـهور حتـى اقتحمـت شركـة عزيـزي بورصـة القيـم، وبـدأت تلعـب دورا ريادِيـا داخـل سـوق الحيوانـات المنويـة، وغـدا سـهمها يسـيل لعـاب المضاربـين. تضاعفـت الأربـاح، توسـع نفـوذ الشركـة، وأصبـح اسـم عزيـزي يتـداول داخـل الحفـلات الخاصـة بـين أصحـاب رؤوس الأمـوال والشـخصيات البـارزة. كـما هـي العـادة أضيـف لقـب الحـاج إلى جانـب اسـمه، الحـاج عزيـزي صاحـب شركة المكافـت، هكـذا انتقـل مـن نوفـل ابـن دار الأطفـال مـرورا بعزيـزي العامـل المجـد، إلى الاسـم اللامـع.

لكـن ريـاح القـدر تجـري بمـا لا يشـتهي البشر دائمـا، فجـاءت الضربة التـي قصمـت ظهـر عزيـزي وقهقرتـه سـنوات إلى الخلـف، أيقظته من حلـم جميـل وعصفـت بـه داخل غياهـب الضيـاع مـرة أخرى.

بنكوكسـوس الملياردير، حاكـم مدينـة «التعالوكـس»، عضـو هيئـة الحيوانـات المنويـة المتحـدة المنشـأة عـلى خلفيـة الحـرب المنويـة الثالثـة التـي أودت بخصوبـة أغلبيـة رجـال العالم. الحرب التي نشـبت بسـبب محاولـة اسـتيلاء إحـدى الـدول الفقـيرة إنجابيـا، والقويـة عسـكريا، عـلى عبـوات دولـة متقدمـة إنجابيـا. هبـت إحـدى الـدول لتسـاعد صديقتها حسـب منطـق التحالـف والاتفاقيات المبرمـة. الأمر الـذي لم تستسـغه الدولـة الفقـيرة فقامـت بطلـب النجـدة مـن دولـة مهمشـة دوليـا، لأنهـا تقـوم بإنتـاج حيوانـات منويـة معدلـة وراثيـا بشـكل غـير قانـوني. نشـبت الحـرب بـين الـدول المتقدمـة إنجابيـا والـدول المخصيـة، فهـب كل طـرف مـن العـالم لنـصرة صديقـه، لعلـع الرصـاص في سـماء الكـرة الأرضيـة، فأعلنـت حربـا عالميـة. اسـتخدم السـلاح النـووي المنـوي المحظـور دوليـا، وهتكـت الصحـة الإنجابيـة، فكانـت نقطـة التحـول في ميـزان الاقتصـاد العالمـي وتربعـت تجـارة الحيوانـات المنويـة عـلى رأس هـرم الاقتصـاد العالمـي. وأصبحـت مكانـة الـدول تقـاس بمـدى توفرهـا عـلى نسـل نقـي وإنتـاج ضخـم.

تـزوج بنكوكسـوس الملياردير بعارضـة الأزيـاء الشـهيرة «بلونكـو ماريـا ديلبرقنـوس»، ملكـة جـمال المكافـت الكونيـة. بعدمـا تسـلل الملـل إلى علاقتهـما الزوجيـة قـررا إنجـاب طفـل يمـلأ العتمـة ويعيـد البهجـة إلى جـو القـصر الرتيب. ويـرث ملايير دولارات بنكوكسـوس. لم تكـن أي مكافـت غـير مكافـت شركـة عزيـزي، ذائعـة الصيـت، قـادرة عـلى مـلء عـين الملياردير، داخـل دولـة «التعالوكـس».

دخـل الملياردير إلى شركـة عزيـزي، اسـتقبله الأخـير اسـتقبال الملـوك، أراد عزيـزي اسـتغلال الفرصـة، هـو يعلـم جيـدا قيمـة الرجـل، هـذه الخطـوة سـتمكنه مـن طـي صفحـات الوطنيـة وفتـح صفحـات العالميـة، سـتصبح شركتـه معتمـدة مـن هيئـة الحيوانـات المنويـة المتحـدة للمحافظـة عـلى النسـل، إنهـا خطـوة نحـو بلـوغ هـرم الرأسـمالية المنويـة العالميـة. سـيتردد بعدهـا اسـمه لـو تكللـت بالنجـاح في جميـع بقـاع العـالم.

- مرحبـا سـيدي بنكوكسـوس، لقـد شرفـت مكافتنـا المتواضعـة، تفضـل الشركـة شركتـك وطلباتـك أوامـر.

قالهـا عزيـزي بـكل مـا يتطلبـه الموقـف مـن احـترام لشـخص الحاكـم.

- إن سـيدي يريـد أجـود مـا يوجـد لديكـم مـن حيوانـات منويـة، ليـزدان فراشـه بمولـود يكـون خـير خلـف لخـير سـلف.

قالهـا مرافـق الملياردير، وهـو يحـاول أن يدفـع عزيـزي إلى إخـراج أفضـل مـا لديـه، مـن عـادات الملياردير أنهـم لا يكبـدون نفسـهم حتـى عنـاء الحديـث، هنـاك مـن يتقـاضى أجـرا ليتحـدث عوضـا عنهـم. العـالم وصـل درجـة مـن البـذخ حيـث يكلـف الغنـي عاملا لقضـاء كل شيء، حتـى حاجاتـه البيولوجيـة، حتى لا يضطـر إلى إرهاق نفسـه. إنـه عـالم مـا بعـد حداثـة الحداثـة.

باعـه عزيـزي بنفسـه عبـوة مختـارة مـن النـوع الممتـاز (النسـل الهومو-نيوندرتـالي) بمليـار دولار، كان قـد فـاز بهـا خـلال مشـاركة شركتـه في المسـابقة الوطنيـة للجـودة، ثمـن باهـظ بالنسـبة لعبـوة منويـة، لكنهـا بضعـة ملاليـم مقارنـة بـثروة بنكوكسـوس اللامتناهيـة. كيـف لا وهـو الشـخص الـذي وضـع عـلى معصـم زوجتـه ملايـير

المجوهـرات ليلـة عرسـها، الـذي لازالـت قصتـه تتواتـر وتحـكى ويـضرب بهـا المثـل في البـذخ، بعـد خمـس سـنوات مـن مـروره.

تناولـت ماريـا ديلبرقنـوس العبـوة، مـرت فـترة الحمـل سريعـة تحـت رعايـة شـديدة مـن ممرضـات محترفـات كان عليهـن تحمـل الأوجـاع مـكان سـيدتهن، وجـاء يـوم الوضـع.

إنـه اليـوم الـذي قـرر فيـه القـدر مضاجعـة عزيـزي وشركائـه وإنزالهـم إلى الـدرك الأسـفل مـن المجتمـع. كيـف حـدث ذلـك وسـط طريـق بـدا مفروشـا بالـورود؟

حكـم عزيـزي بالإعـدام، في حـين حكـم الموظـف والحـرفي وبائـع الريـح بالسـجن المؤبـد عـلى إثـر بيعهـم عبـوة مـزورة لحاكـم المدينة «منـي كونطربونـد»، عـوض أن يخـرج منهـا طفـل هومو-نيوندرتـالي خـرج طفـل عـربي. العبـوة التـي تناولتهـا ماريـا والتـي سـهر عزيـزي بنفسـه عـلى المحافظـة عليهـا، اسـتبدلتها خادمتـه بعبـوة أخـرى انتقامـا مـن عزيـزي عـلى اغتصابهـا أيـام كان يشـتغل كمنتـج ميـاوم في ضيعـة الفـلاح. عزيـزي نـسي وجـه العاملـة التـي اغتصبهـا ذات ثمالـة، لكـن الأنثـى لا تنـسى وجـه مغتصبهـا.

مـن عبثيـة القـدر أن الشـاب الـذي ضرب رأس عزيـزي، شـاب خـرج مـن عبـوة الفـلاح الـذي كان يشـتغل لديـه عندمـا كان يحـاول الانعتـاق مـن الفقـر، فبقـي السـؤال لأيـام يـتردد داخـل السـجن بـين الـشركاء:

هـل قتـل الشـاب والـده عزيـزي؟ ربمـا يكـون ابـن الخادمـة؟ وربمـا يكـون مجـرد جنـدي وجـد نفسـه يـضرب رأس أشـهر بائـع حيوانـات منويـة في المدينـة: نوفـل عزيـزي...

انتقام كريولة

خرجت البارحة أو قبل البارحة، كعادتي كلما رفضتني إحداهن، أتجول ليلا، أتفقد حال الأحلام، ألون الكوابيس بالوردي، أدس رأسي في سلة مهملات المستشفى لعلني أجد دواء للعنتي تارة، وأصلي ماشيا بجميع الطرق الممكنة لله ليشفيني من أرقي المستمر تارة أخرى. شعرت بشخص يتعقبني، سبقته رائحته النتنة كميت هارب من ثلاجة الموتى، هل أزعجه طوافي الروتيني حول حاويات القمامة «البركاصة» كلما ضاقت بي السبل وجاء ليحرر منطقته؟

تأكدت من شكوكي، متشرد أو شمكار يتعقبني، ماذا يريد مني؟ ألا يدري أنني شمكار متقاعد لا أخشى من الماضي. هل أقرضني يوما «سقية» من صمغ عجلات الدراجات «سيليسيون» فشاءت التوبة ألا أرجع الدين؟ ربما يكون أحد الذين نسيت أن أذكرهم لحبيبتي البورجوازية عندما كنت أحاول التخلص من الوصم وأتقمص دور بورجوازي ممسوخ، أو ربما تائه مثلي قذفت به الأقدار لينتقم ممن يتقاسم معه متعة التجوال ليلا. ضاعفت سرعتي عندما وصلت زاوية حائط المستشفى، تحولت لـ«أوسن بولت» بسبب الخوف، الخوف رجولة كما تقول الأسطورة وجبن في قاموس الفتوة، وأنا مؤمن بالأساطير حتى النخاع. عرقلَت الكوليرا والسجائر المستوردة محاولتي الابتعاد، أشعر بشيء يجرني نحوه كأنني أعدو في حلم: أركض بسرعة

أكـثر -يركـض بسرعـة أكـثر، ألهـث- يلهـث، ألعنـه -يلعنـي، ألتقـط أنفـاسي- يلتقـط أنفاسـه... نفـس لعبـة مرايـا درويـش في قصيـدة أنـا وهـو. وصلنـا طريقـا مسـدود، اسـتدرت نحـوه، ولم يسـتدر، تأكـدت أنـه بعيـد عـن كونـه آخـري المنعكـس في كـون آخـر، قلبـي ينبـض بسرعـة جنونيـة، سـيخرج عـلى شـكل قـيء، تشـوك لحمـي، تلبسـني الخـوف كامـلا ولم أعـد أسـتطيع بلـورة فكـرة سـليمة تجنبنـي ورطتـي، لا أسـتبعد أن يكـون جنيـا يريـد أن يعيـدني إلى الإيمـان بالغيبيـات كـما كنـت ذات وعـي.

جمعتُ قواي وقررت المواجهة، شفويا بطبيعة الحال:

-ماذا تريد؟

لم يكلـف نفسـه عنـاء الإجابـة، دس يـده خلـف ظهـره يهـم أن يسـتل شـيئا، ربمـا يريـد تمشـق سـاطور ليشـق قلبـي ويطهـره مـن الكفـر، ركبـت الريـح قبـل أن أعـرف مـا هـو فاعـل، لا أريـد أن أمـوت اليـوم، لـو جـاء قبـل سـنوات لمـا تـرددت في تسـليمه روحـي عـلى طبـق، حجـرة سـيزيف اليـوم تمنعنـي مـن ذلـك، انبثقـت مـن الجبل-النمـط سـهوا بعـض الأهـداف. تخيـل أن تمـوت قبـل أن تنتقم مـن نفسـك؟ مـن أولئـك الذيـن أخـبروك أنـك مجـرد فـراغ وجـد لاسـتكمال اللوحـة. تخيـل أن تمـوت عـلى يـد شـمكار وقـد أفنيـت عمـرك القصـير تدافـع عـن إنسـانيتهم وسـط عـالم يتأفـف حتـى مـن النظـر إليهـم. تخيـل أن تمـوت قبـل أن تخـبر حبيبتـك السـابقة أنهـا أسـاءت اختيـار الـزوج، وأن قبلـة الزفـاف كانـت مصطنعـة حتـى البشـاعة، ولـو أنهـا أمالـت رأسـها إلى الأسـفل شـيئا مـا، لبـدت القبلـة أكـثر واقعيـة. تخيـل أن تمـوت بعدمـا جفـت رغبـة المـوت فيـك. أيـن كان المـوت عندمـا كنـت أشـتهيه؟

وضع يده على عنقي، واستل ساطورا من ظهره، تجمدتُ مكاني، لمعانه شل حركة عيني. التصق بي وهمس في أذني:

- تقدم إلى بيتك، بدون أي مقاومة أرجوك يا حموية.

شخص غريب يناديني باسمي الأكثر تداولا، من يكون؟ لماذا أشعر أنه أقرب من حبل الوريد، بالرغم من أنها المرة الأولى التي أقابله فيها؟ دخلنا الغرفة البئيسة، لم يترك لي فسحة للمقاومة، أجلسني فوق كرسي أستعمله لخلق العوالم:

- من الذي أعطاك الحق لتقتل بعته؟ تكلم أيها الجبان... وأتبعها بلكمة سمعت صوتها على خدي دون أن أشعر بأي ألم.

أنا قاتل دون أن أدري، جبان مثلي يكون مجرما، بيضة الديك أقرب للتحقق من ذلك.

- لا أدري ما الذي تتحدث عنه أيها السيد؟ لم ينتبه أنني أجبته بسؤال، هو مغربي إذن، معتاد الإجابة عن الأسئلة بأخرى. ربما لفظ السيد أنساه هروبي من الإجابة التي أجهلها، نعم سيدٌ رغما عن أنفي وصولجان ملكه الساطور الذي يتأبطه.

- ترى لو اقتلعت عينيك دون أي مبرر، هل ستكون مرتاحا؟ هل تستطيع أن تعيش حياة عادية بدونهما؟

لو قال «هل ترى؟»، لكنت استبعدت في الحال أن يكون شمكارا، كيف لشمكار أن يكون على دراية بأشعار أمل دنقل؟ يجيبني صوت داخلي، وأنت كيف فعلت ذلك؟

اخترت أن أجيب عن السؤال صاحب الأولية الذي يخفي بين طياته ساطورا مشعا:

- لن أثنيك عن ذلك، لكن على الأقل أخبرني ما اقترفته كي أستحق ذلك سيدي.

- لا تناديني بالسيد، اسمي هو «كريولة»...

كريولـة، اسـم مألـوف، لكننـي لا أتذكـر مـن يكـون. قـرر مسـاعدتي عـلى التذكـر، ووجـه لكمـة نحـو يـدي، لمـاذا يختـار أن يـضرب يـدي عـوض فمـي أو أنفـي كـما في السـابق...؟ وضـع سـاطوره فـوق كتفي:

- سـأقتلع يـدك لأنهـا السـبب فيـما أعانيـه، أم أن الأفضـل أن أقتلـع أصابعـك واحـدا تلـو الآخـر، وأشـق دماغـك نصفـين لأخلـص العـالم مـن سـاديتك؟

سـأجن قبـل أن يقتلنـي، لمـاذا هـو مـصر عـلى يـدي، أصابعـي، ودماغـي، هـل للأمـر علاقـة بالكتابـة؟

- لـو أخبرتنـي أيـن وضعتهـم سـتخفف الأمـر عـلى كلينـا، ولـن أكـون مضطـرا لممارسـة العنـف عـلى مـن وهبنـي الحيـاة.

- وهبتـه الحيـاة؟ أيـن وضعتهـم؟ لا أدري عـما تتحـدث يـا سـيدي، عفـوا كريولة...

فتـح كريولـة الـدرج، أخـذ منـه مجموعـة أوراق، بـدأ يفتـش بينهـا والدمـوع تنسـاب مـن عينيـه كالسـيل، اكتظـت الغرفة بالشـخصيات الورقيـة المتطايـرة، الجميـع يحملـق في كريولـة بغرابة، مشـهد كربوني لمشـهد القيامـة لا تنقصـه سـوى الصرخـة:

- أنـا كريولـة أعبـدو، جامـع القمامـة الـذي خلقتـه ذات هلوسـة حبريـة، جامـع القمامـة الـذي سـولت لـك نفسـك أن تغتـال حبيبتـه الكلبـة «لينـدا»، أنيسـة دربـه الوحيـدة التـي ظلـت وفيـة في زمـن الخيانـة... وجعلتـه يهـان أمـام الجميـع في جنازتهـا.

يـا إلهـي، هـل هـذا ممكـن؟ إنـه كريولـة بطـل قصـة سـابقة، جـاء لينتقـم لمـوت حبيبتـه الكلبـة. نهضـتُ مـن مـكاني، أخـذت المسـودة مـن المكتبـة الصغـيرة. سـلمتها لكريولـة هـي وممحـاة كي يعيـد كتابة

قدره:

- آسـف كريولـة، لم أقصـد إيـذاءك، لقـد كنـت أحـاول أن أنـسى كلبتـي لينـدا بقتـل حبيبـك. القصـة أمامـك أعـد نسـجها كـما تريـد، قـم بإزالـة الأحـداث التـي لا تبـدو لـك لائقـة.

- لا أريد شيئا سوى أن أتساوى مع حبيبتي أمام القدر الحبري.

مسـح كريولـة القصـة مـن أول كلمـة حتـى آخرهـا، الجنـازة الغريبـة، الشـمكارة، جثـة الكلبـة، مسـح اسـمه... وكطبيـب صينـي أعـاد للورقـة عذريتهـا. تـلاشى كريولـة في الفـراغ قبـل أن أتمكـن مـن إعـادة كتابـة قصتـه مـن جديـد. هـو يعـرف أننـي كاتـب فاشـل كلما حاولـت كتابـة قصـة سـعيدة، أجـدني أنسـج عالمـا أكـثر بؤسـا مـن ذي قبـل. مـات كريولـة مقتفيـا أثـر لينـداه، مـن أيـن أحصـل عـلى الشـجاعة لأقتفـي حبيبتـي أيضـا؟

خيوط العنكبوت

فتش جيبه بعنف، خمسة دراهم هي كل ميزانيته. يجب أن يبحث عن طريقة كي يُسكت وحش الإملاق المتقد داخل بطنه بعيدا عن شراء الأكل، وليمضي ليلة في مكان يقيه من البرد دون أن يدفع سنتيما واحدا.

بماذا سأحقق كل هذه الأحلام؟ يتساءل، بخمسة دراهم؟ يجب أن تكون عملة دانماركية كي تكفي، لماذا لا تكون الحياة بسيطة، الجميع يجد الأكل والمبيت، ونكون سواسية أمام الإنسانية؟ لولا الوعد الذي قطعه لنفسه ذات يوم لما احتار في إيجاد السبيل للخروج من ورطته، عملية سطو صغيرة كافية لتضمن له مصروف شهر، قرر القفز على الفكرة قبل أن تنضج داخل رأسه ويتملكه الاشتياق للمجرم الكامن داخله، قاسية ضريبة التحول إلى إنسان محترم، إنسان يحترم نفسه عندما يضع رأسه على الوسادة، بالرغم من أنه لم يملك يوما وسادة، ولا فراشا، ولا منزلا، ولا حضنا دافئا يهمس له عندما يسدل الليل جفونه على الوجود: أحبك. فقط مبادئه التي أعاد بلورتها بعدما ضيع نفسه لسنوات يقتفي أثر المجرمين. يريد قلب التاريخ بدم بارد. شاخ الطفل الذي سكنه ذات زمن غابر عندما التهم الموت عائلته، هدم عائلة كانت تحاول أن تتأقلم تحت درجة الصفر، أخذها وأخذ طفولته، تاركا إياه يتخبط في الهامش وحيدا، يقتات على الإقصاء والحرمان. كم هي مؤلمة ذكرياته، بذر عمره يحاول التهام الممنوعات لينسى

خيانـة الزمـن، حتـى الفـلاش بـاك غـير قـادر عـلى أن ينسـيه الجـوع وقسـوة الـبرد، ذكرياتـه بـاردة، حارقـة، لا تزيـد طينـه إلا بلـلا.

قـرر تجـاوز بنـد مـن دسـتور وضعـه مؤخـرا، مجـبر لا بطـل. أفـرغ علبـة صمـغ العجـلات «نورطيكـس» في كيـس بلاسـتيكي، ابتاعـه مـن بائـع لـوازم الدراجـات الهوائيـة. يجـب أن يصـل إلى القمـة في بحثـه عـن الخـلاص عـبر «التشـمكيرة»، «الرومبـو» الـذي يعـادل النيرفانـا عنـد الشـمكارة، لا شيء غـيره يسـتطيع إخراجـه مـن كآبة ليلة بـاردة، ويسـتبدل بـكاء بطنـه الشـبيه بصرخـة القيامة بسـمفونية كلاسـيكية يعزفهـا بيتهوفـن لـه وحـده كـدوق بعـث مـن جديـد. دخـل في حـوار وجـداني مـع الكيـس، كعاشـق يعـزف عـلى ثـدي معشـوقته، تتعمـق أصابعـه في الكيـس وتخـرج معهـا نوتـات موسـيقية، فمـه شـبه منصهـر في فـم الكيـس كقبلـة شـبقية بـين عائـد مـن المنفـى وحبيبتـه، ومـا هـي إلا لحظـات حتـى تمكـن منـه النـوم، غـير آبـه بالوجـود بـكل تفاصيلـه، أذاب المخـدر الوجـود داخلـه وخـر جسـده ليشـوه الزمـن في رأسـه، وأخـيرا توقـف الجـوع عـن التحـرش بجسـده المنهـك وانبعـث مـن حيـث لا يـدري نسـيم حـار أدفـأ جسـده البارد.

أيقظتـه الشـمس وحركـة المدينـة صباحـا، لم يجـد العملـة النقديـة في جيبـه، بـل لم يجـد الجيـب أيضـا. تذكـر أنـه صرف كنـزه عـلى علبة الصمـغ لينـسى أنـه جائـع. اسـتغرب مـن عـدد الأيـدي لديه، مـا الذي وقـع؟ تشـابكت أياديـه المتعـددة، مشـكل جديـد، انضـاف إلى الجـوع الـذي يـصرخ في بطنـه. أياديـه تحـاول شـنقه بحركتهـا السريعـة غـير المنتظمـة، مـن ألقـى عليـه مسـحوقا سـحريا؟ تحـول إلى عنكبـوت أو رتيـلاء ضخمـة، مـن أيـن أتـت هـذه مـن الأيـادي؟ رأسـه ضخـم كـرأس بـودا، صعوبـة في الحركـة، طريقـة تنفـس جديـدة لم يعتـد

عليها، شكل غريب لا يربطه بشكله القديم سوى طعنات الجوع بين الفينة والأخرى.

قرر ألا يقف في مكانه يبكي أطلال ماضيه الإنساني البئيس، رب ضارة نافعة، ربما تكون حياته كحشرة ضخمة أكثر حظا من حياته كمُعدم تائه داخل حلقة مفرغة. استطاع أن يفك شبكة أطرافه ويضعها على الأرض كي يستطيع التحرك، في هذا الشكل الجديد لن يتعرض للسخرية على الأقل ولا التعايش مع شفقة ساكنة الهناك. وضع خطة في رأسه، سيبحث عن أبناء جنسه، ويعيد بناء حياته كحشرة من جديد، لا وظيفة، لا علاقات اجتماعية، لا ثروة، لا مكانة... يخشى عليها من الزوال. لقد تحول إلى إنسان يرتدي حشرة. فارغا من كل شيء، لم يبق إلا هو، تغير الجسد كلية ومازال يشعر أنه نفسه. توجه نحو شبكة عنكبوت منصوبة، لم يستطع التقدم أكثر بسبب جسمه الضخم مقارنة بباقي العناكب. استقبلته العنكبوت صاحبة الشبكة مكهربة:

- ماذا تريد؟

- أريد العيش معكم؟

- أنت لست منا، هل تستطيع صنع خيط شبكة مثلا؟

- ربما...

بذل جهدا جبارا كي يخرج من دبره خيط عنكبوت، بعد عدة محاولات أخرج ما في معدته من فضلات على قلتها بعد أيام جوع.

- لن تكون عنكبوت، أبحث لك عن مخلوقات أخرى تنتمي لها...

ربما يكون أخطأ الاختيار، لماذا لا يكون من فصيلة عناكب أخرى غير هاته، مثلا عنكبوت الأقباء طويلة الأرجل، تلك الحشرة التي تتنقل في المنازل، مهمتها فقط أن ترشد السائل بإحدى أطرافها إلى اتجاه الحج. الأمر بسيط، حتى لو كان حمارا يستطيع معرفة الطريق إلى الكعبة، خاصة أن الدولة المكلفة بها أصبحت تتنافس مع الدول العظمى، في الفضائح. عقد عزمه مرة أخرى، واتجه نحو عنكبوت طويلة الأرجل يسألها، عوض أن تجيبه على سؤاله تجاهلته وبدأت تشير له نحو الطريق إلى الكعبة. كرر المحاولة بلا جدوى، كل مرة تلوح العنكبوت برجلها نحو الكعبة كبوصلة الحجاج. هذا التجاهل ذكره بحياته كإنسان، لقد كتب عليه التهميش والإقصاء حتى كحشرة، يشعر بالرأس الضخم فوق أطرافه المتعددة كصخرة سيزيف، تضاعفت كتلتها عندما تعرض للرفض من طرف أبناء جنسه.

صرخ محاولا أن يثير انتباهها كمحاولة أخيرة:

- الحج من هنا أيتها «نانا يشة».

أجابته العنكبوت:

- ومن يسأل عن طريق تحويل الملايين إلى حساب آل سعود؟ اذهب يا بني إلى حال سبيلك، إن المقدس لوث بالمدنس، لقد ضاع الدين بضياع الغايات...

كانت صرخة العنكبوت كصرخة كانط التي أيقظت الأنوار الأوربية، أيقظ صوتها المنطق داخل عقله، هو لا ينتمي إلى هذا العالم بجميع كائناته.

قرر الموت بدل الاستمرار في الحياة كحشرة منبوذة، بعدما نبذ كإنسان، قبل أن يلقي بنفسه داخل البحر، شاهد مخلوقا يشبهه،

جميـل المنظـر، يتمايـل كأنثـى تدعـوه إلى الحـب، شـعر بـشيء تحـرك داخلـه، فهـم أخـيرا أنـه ينتمـي لصنـف العناكـب السـابحة، بمـا أن ثقافتـه البحريـة ضعيفـة لم يخلـص إلى أنـه تحـول إلى أخطبـوط، قـرر أن يرتمـي فـوق أنثـاه، فرحـا بسـعادة تبـدو قريبـة منـه للمـرة الأولى.

ارتطـم بالمـاء، عـوض أن يغـوص داخـل حضـن حبيبتـه السـابحة، اسـتيقظ مبلـل الملابـس، وسـط بركـة مائيـة. نظـر في المـاء، تنهـد وهمـس لنفسـه:

- لقد أخذتني «التشمكيرة» بعيدا هذه المرة...

المغربي الأخير

القناة الإخبارية العالمية الأولى:

خبر عاجل: «من حسن حظ العالم أن فيروسا قاتلا اغتال جميع المغاربة، عاصفا بحيلهم الشيطانية غير المحدودة نحو الزوال».

حزنت الشياطين لرحيل أعظم منافس لها، وبكت السماء لأنها فقدت شعبا كانت ترفع الأيادي للدعاء عليهم، ولم يبقى إلا مغربي واحد قاوم الفيروس، وسل روحه من الموت كالشعرة وهو ما لم تذكره القناة الإخبارية. شاب عشريني يدعى «السلحاتي»، يسكن المزابل بعدما رفض السكن المجاني بمستشفى الأمراض العقلية، ثقافته متوسطة، اتهم بالجنون بسبب آرائه السياسية، يقال والعهدة على من قالوا ذلك، إنه ماركسي جننه المخزن بحقنه الطبية التي تزيل كل الأفكار الضارة، بالنظام طبعا، من الأدمغة المريضة بالثورة والحريات. وعندما عاد عن غيه الثوري، أخلي سبيله ليجد نفسه كالمصاب بالجذام ملقيا على هامش الهامش. النفايات ضارة نافعة، ضاعفت قوة مناعته وجنبته الإصابة بالفيروس القاتل. لكنها تسببت له في الدمار الروحي وما بقي من عقله، لم يعد يستطيع التفريق بين نفسه وبين القطط المشردة، لطالما شوهد يقلد حركاتها أو يضاجعها. ربما كان قاب قوسين من تشكيل جيش قطط يثور على بني البشر وما ألحقوه بسيد القطط السلحاتي.

قـررت حكومـة العـالم، بعدمـا تحـول العـالم إلى شـبه دولـة كبـيرة، تضـم عـدة دول صغـيرة، تخضـع لنظـام واحـد تحقيقـا لنبـوءة فوكـو ياما، عقـد اجتـماع مـن أجـل بحـث سـبل التخلـص منـه أو محاولـة إصلاحـه لعلـه يتحـول إلى مواطـن عالمـي صالـح. شـحذت الهمـم لركـوب مـوج التحـدي ومحاولـة إضرام نـار الأمـل في ثلـج الفشـل، وانتـصر الاجتـماع للإنسـانية، بالرغـم مـن معارضـة العقلانيـين داخـل المجلـس.

أُنتشـل «السـلحاتي» مـن بـين جيـش قططـه، وعـالم الأزبـال الـذي يقطنـه. وأرسـل إلى المحيـط الشـمالي المتجمـد. وضـع تحـت ضغـط الظـروف الطبيعيـة القاسـية. التجربـة سـتؤدي إلى نتيجتـين: المـوت بالـبرد فيكـون العـالم تخلـص مـن نسـله القنفـوذي الحيـل نهائيـا وهـذا هـو مطمـح العقلانيـين، أو الإصـلاح ليندمـج وسـط المجتمـع العالمـي مـرة أخـرى. وتكتـب نهايـة شـعب بلـغ ذكاء حيلـه الإعجـاز، وهـو الطـرح الـذي يدعمـه الإنسـانيون.

القناة الإخبارية العالمية الأولى:

«سـينعقد اجتـماع المجلـس العالمـي للبـث في إحـدى القضايـا المهمـة».

بعـد مـدة ليسـت بالقصـيرة عـلى إلقـاء «السـلحاتي» وسـط الجليد، قـرروا زيارتـه بعدمـا لاحظـوا مـن خـلال الأقـمار الاصطناعيـة أنـه لازال حيـا، ومنهمـكا في شيء مـا، افترضـوا أن التجربـة نجحـت وتحول إلى رجـل صالـح، بإجـماع أعضـاء المجلـس العالمـي.

جمعـت لجنـة خاصـة وقـررت زيـارة «السـلحاتي» لإعادتـه مواطنـا صالحـا إلى المجتمـع، لكنهـا كانـت الصدمـة.

استطاع «السلحاتي» أن يستولي على كل الجليد، وأحاطه بسياج لم يعرف مصدره، وألقى كل البطاريق داخل المياه الباردة. وبدأ يبيعهم الثلج بالميزان، لمن أراد الحصول عليه من أجل بناء بيت، أو تشكيل أرض يتزحلق عليها. ويبيع صغار البطاريق المثلجات بثمن باهظ بعدما كانت مجانية قبل قدومه، وشكل طاقما من الدببة القطبية تساعده في عمله يدفع لهم بالسمك الذي كانوا يحصلون عليه مجانا قبل حلول لعنة المقالب بالمحيط.

استغربت اللجنة، شيطانية المغربي جعلته منه بارونا للثلج وسط مجتمع غريب، فكيف لو كان وسط بشر إنسانيين؟ ربما يبيعهم الأوكسجين أيضا. أعادت برودة الثلج صقل مواهبه وأحيت عقله الميت وأزالت تأثير الحقنة. حكموا عليه بالقتل رميا بالرصاص. فمات آخر مغربي، ليختفي أثر شعب أرهب العالم بذكائه.

مرت عشرون سنة على وفاة «السلحاتي»، المغربي الأخير، وعندما اعتقد العالم أنه دخل في مرحلة نضج الإنسانية واختفت الحروب وعم السلام العالم، هوجم مقر حكومة العالم من طرف جنود غرباء، دمروه عن آخر. نشبت حرب طاحنة بين جيش العالم والجنود الغرباء، بالرغم من قلة عددهم إلا أنهم كانوا أشداء، على درجة عالية من الذكاء والخبث الحربي، حرب ضروس كبدت العالم خسائر تفوق خسائر الحروب العالمية، كان تركيز الجيش الغريب ينصب على تدمير كل مراكز البحث العلمي ووكالات الفضاء، يريد أن يصيب العالم في مقتل، وأن يرجعه قرنا إلى الخلف. دمر مقر القناة الإخبارية العالمية الأولى وكل وكالات الأنباء العالمية. واغتيل كل مقدمي الأخبار بطريقة

وحشية لم يشهد لها العالم مثيلا. استطاع جيش الغرباء أن ينبش جثة «السلحاتي» المحنطة منذ سنوات كآخر مغربي كان وقتل. فانتشر اعتقاد أن الجيش أحد ضحايا حيل «السلحاتي» الأخيرة قبل زواله. عمت الفوضى العالم كله، وبث الرعب في أنفس الجميع، وأعلن حظر التجوال إلى حين نهاية الحرب، فكان الدمار شبيها بالدمار الذي يأتي بعد صرخة القيامة.

انتصر جيش العالم أخيرا، وسجن الأحياء من جيش الغرباء، وكلف مجلس العلم بدراستهم. مخلوق جسده جسد بطريق بطول إنسان ضخم، وجهه يشبه الإنسان شيئا ما، ما هو بالضبط؟ وإلى أي صنف ينتمي؟ يقاوم كل الظروف، بطريق يستطيع القتال تحت جميع الظروف.

بعد تحليل «DNA» الخاص بالجنود، صدم المجلس والعالم، الجيش الغريب كان مشكلا من أبناء «السلحاتي» بعدما توفي وترك في بطون إناث البطاريق ذريته. فجاء الجيش منتقما لموت والدهم، لقد ترك «السلحاتي» جيناته الثورية في أبنائه. لأول مرت تنبعث الماركسية الدموية من الجليد. فأضيفت حقيقة علمية أخرى إلى الحقائق العلمية: «تمغربيت فكرة، والفكرة لا تموت...». فقرر العالم أن يلغي فكرة أن المغاربة قد اختفوا من العالم رغم موتهم.

حشيش الموت

خرجتُ ليلا كي أشم بعض النيكوتين الطري الممزوج بما لا تعلمون، التقيت مصادفة مع الموت. لست مجنونا حتى لو بدوت كذلك، رقم بطاقتي الوطنية مجهول يقود ستة أرقام عبثية، واسمي ليس اسما قانونيا، هل تأكدتم أنني لا أهلوس؟

لن أخفيكم سرا، بالرغم من أنني بشع حتى القبح، ارتعبت عند مشاهدته، مخلوق بدون ملامح، غطاء غريب يخفي شعر رأسه، يحمل مذراة حديدية صدئة بشكل مقزز، على عكس ما تروج له الأساطير الغربية، على ظهره حقيبة ضخمة أقبح من شكله، تبدو كصدفة سلحفاة تخرج منها أصوات غريبة، كأن الكون يختنق داخلها. أزال الغطاء كي يشعرني بالأمان، ومع ذلك ملامحه غير واضحة، وضع المذراة جانبا، وطلب مني الهدوء، هو يعلم أن الجميع يخافه، يا له من قدر غريب، كم أتشابه إياه. اقترب مني، ألقى التحية بصوته الجميل، تفاجأت! كنت أعتقد أن صوته خشن يثقب طبلة الأذن. أخبرني أن لا نية له للقبض على روح منتهية الصلاحية، يريد ولاعة ليشعل سيجارة قبل أن يتجه إلى قبض الروح التالية. استغليت الفرصة لأسأله وأتقمص دور سقراط ليلا لعلني أولد المعرفة من الموت ولو قيصريا:

- الموت يدخن؟ منذ متى بدأت التدخين؟

- منذ أن قرأتُ أن التدخين يقتل، لقد تعبث من هذه المهنة، الإنسان ناكر للجميل، أخلصه من شقاء الوجود، وينعتني بهادم

اللـذات، عـن أي لـذات يتحـدث؟ هـذا الصنـف مـن المخلوقـات مـازوشي يعشـق العـذاب وجاحـد بالنعـم. ربمـا يذيـب الدخـان لعنـة القـدر، وأمـوت كـما يمـوت الجميـع، لا وقـت لـدي لانتظـار صرخـة القيامـة. أشـتهي موتـا بسـيطا، لا أظـن أن أحـدا عـلى اسـتعداد لحضـور مأثـم المـوت، لا دمـوع أترجاهـا، لا ورود، لا مـاء زهـر، لا قـبر... لا أريـد شـيئا، أريـد الـزوال فقـط.

- لكنـك تخلـف وعـدك عندمـا يناديـك الضعفـاء والراغبـين في حضنـك؟

- أنـا لا أرضى بقبـض أرواح ميتـة أصـلا، أو أرواح مسـتعملة كروحك، أنـا المـوت لا جامـع قمامة...

دخـل في هيسـتيريا مـن الضحـك، ربمـا هـي طريقتـه في البـكاء. وبنـبرة حزينـة أضـاف:

- الجميـع يكرهنـي كأننـي اخـترتُ أن أكـون، العبـد يخـشى السـيد فيهاجـم عبـدا مثلـه... هـذه ضريبـة وجـودي.

انتهـزت فرصـة انغماسـه في التفكـير في حالـه، ونظـرت في وجهـه، ليسـت كل مـرة تتـاح الفرصـة للنظـر في وجـه المـوت، إننـي قـاب قوسـين مـن المـوت أكـثر مـن كل المـرات التـي حاولـت فيهـا الانتحار، لا يفصلنـي عـن المـوت سـوى دخـان سـيجارة. لم يكـن وجهـه بشـعا كـما خيـل لي في الوهلـة الأولى، يتكلـم دون فـم، أسـمع صوت شـهيقه وزفـيره، لكنـه دون أنـف، يدقـق النظـر في وجهـي، لكنـه دون عينـين. وجهـه يشـبه لعبـة «puzzle» مبعـثرة، تنظـر فيـه فتجـد نفسـك تائها دون أن تصـل إلى حـدود الرؤيـا، لا نهـائي القسـمات. كأنـه بـين الذكـر والأنثـى، لا يمكـن أن يكـون مثليـا، هـو جنـس فـوق الجنـس. رائحتـه زكيـة، رائحـة أعرفهـا أنهـا رائحـة الـزوال واللاوجـود، نفـس الرائحـة

التـي تركتهـا حبيبتـي وراءهـا ذات فـراق. ربمـا بـدأ الشـك يتسـلل لكـم بأننـي مجنـون، أقسـم بالمـوت الـذي نعيشـه أننـي لسـت مجنونـا حتـى لـو بـدوت كذلـك، رقـم بطاقتـي الوطنيـة مجهـول يقـود سـتة أرقـام عبثيـة، واسـمي ليـس اسـما قانونيـا، هـل تأكدتـم أننـي لا أهلـوس؟

سألته مرة أخرى:

- لماذا لا تستقيل من عملك؟

- لكننـي لا أعـرف إلا حرفـة قبـض الأرواح، ولا يوجـد مخلـوق قـادر عـلى تعويضي.

- أبـشر يـا مـوت! هنـاك مـن البـشر مـن يقـوم بـدورك دون أن يميـت الجسـد، فنـان في قتـل الحيـاة في أخيـه، يمتـص إنسـانية النـاس، يجردهـم مـن كينونتهـم دون أن يميتهـم، يجعلهـم أمواتـا مـع وقـف التنفيـذ، يحولهـم إلى مخلوقـات نمطيـة، نسـخ كربونية مكـررة تعتقد أن الحيـاة كذلـك.

سـلمتُ لـه سـيجارة محشـوة بالحشـيش، أشـعلها دون ولاعـة، سـحب عميقـا، ونفـث دون أن يخـرج أي دخـان. اسـتغرب مـن مذاق الحشـيش، وادعـى أنـه منـذ مـدة لم يتـذوق حشيشـا جيـدا مثلـه، وأقسـم بالحيـاة عـلى ذلـك. المـوت أيضـا يقـدس الحيـاة، ربمـا يحـترم عملـه رغـم كرهـه لـه، لم يطاوعنـي عقـلي المخـدر في تحليـل ذلـك وممارسـة هوايتـي في تفكيـك الجمـل والعبـارات. رضيـتُ بالفكـرة كـما هـي، كأنهـا آيـة قرآنيـة محكمـة. قـررتُ بعدهـا أن أسـتغل إحساسـه بالنشـوة ليحقـق لي أمنيـة لطالمـا تمنيتهـا، إننـي مغـربي لا أرضى إلا بـرد الجميـل. سـأطلب منـه أن يعيـد لي حبيبتـي التـي أخذهـا شـابة لم ترتـو بعـد مـن رضـابي، ولم أسـق عروقـي الجافـة

مـن عسـلها، الـروح الطيبـة التـي أرجعهـا إلى ربهـا وتركنـي فارغـا كالإنسـان الآلي أعيـش دون هـدف، دون غايـة. لطالمـا تمنيـت عودتها، ورفعـت يـدي إلى السـماء، هـل تكـون السـماء اسـتجابت أخـيرا لكافر مغلـوب عـلى أمـره؟

- صديقي الموت، أريدك أن تعيد حبيبتي؟

- ما اسمها؟

- ليندا، ليندا بوعبوطْ...

- لم يسـبق أن قمـت بذلـك، عندمـا أعـود إلى خزانـة الأرواح وأنهـي جولتـي الروتينيـة، أعـدكُ بالحشـيش الـذي تقاسـمناه أنهـا سـتكون مـرة أخـرى بـين أحضانـك، لا لأنهـا حبيبتـك وأنـت صديقـي، بـل لأن اسـمها بوعبـوط، لا أرضى باسـم مثلهـا ليكـون ضمـن خزانتـي.

ضحـك بصـوت صاخـب كصرخـة الـولادة، حمـل حقيبتـه، واتجـه نحـو الـروح القادمـة ليتمـم عملـه. ربمـا تعتقـدون أنكـم تيقنتـم من أننـي مجنـون، أقسـم الـذي بالأمـوات الأحيـاء أننـي لسـت مجنونـا حتـى لـو بـدوت كذلـك، رقـم بطاقتـي الوطنيـة مجهـول يقـود سـتة أرقـام عبثيـة، واسـمي ليـس اسـما قانونيـا، هـل تأكدتـم أننـي لا أهلـوس؟

أتممـت مـا بقـي بـين أنامـلي مـن السـيجارة وانسـحبت عائـدا إلى كوخـي المهـترئ محـاولا أن أصـدق أننـي كنـت لتـوي جالسـا مـع المـوت نتنـاوب عـلى سـيجارة محشـوة. بـدأت أشـك أيضـا أننـي مجنـون، أقسـم بـ (...) مسـتحيل.

اسـترجعت شريـط المحـاورة الغريبـة، حتـى المـوت متناقـض، يشـتغل بقبـض الأرواح بقواعـد لا يفهمهـا، ويتأفـف عـن بعضهـا بمزاجيـة غريبـة، عـوض أن يمـوت ليتخلـص مـن عذابـه، يسـتمر في

القتل، الحل في يده لكنه يبحث بعيدا. ربما الغباء عملة الوجود، الإنسان أيضا يكره الحياة ولا يريد الموت. المهم أن يعيد حبيبتي وليذهب المنطق إلى الجحيم.

نمت نوما عميقا، لكني لم أستيقظ في سريري، فتحتُ عيني وسط دولاب كبير، لم أعد أشعر بجسمي، كأني خيط دخان رفيع، أو فكرة تتراقص في العدم، أشعر بالمكان مكتظا بالرغم من أنه فارغ، مددت يدي فعادت فارغة، لا أؤمن بالأشباح، لكن ما هذا؟

أخبرني صوت لم أحدد ماهيته:

- أنت في خزانة الموت...

استعدتُ ذكريات الليلة الماضية محاولا أن أجد سببا لما أنا فيه، لا بد أنه الحشيش اللعين، عوض أن يعيد الموت لي حبيبتي، ألحقني بها... كنت تعيسا لأني مت قبل أن أبصق في وجه لائحة من الأشخاص أعددتها قبل تدخينه: بائع الحشيش الذي قتل شباب الحي، أستاذ الجغرافيا الذي علمني خريطة العالم ونسي إخباري مكان حبيبتي، أستاذ تاريخ أوهمني أنني موجود، صديقتي التي أحبتني ولم تخبرني بذلك، وكلبتي لأنها ماتت فقط... وسعيدا لأني تيقنتُ أن صديقي باعني حشيشا جيدا «طبيسلة»، جعل الموت يخطئ الهدف، فقبض روحا مستعملة، وترك الموتى فوق الأرض يتعذبون. يجوز لكم بعد ذهابي أن تعتقدوا أنني مجنون، لربما كنت كذلك.

فان کوخ

إلى العزيز فان كوخ أينما كنت...

أما بعد،

قررتُ أن أقطف شوكة من ظهري وأبللها بمداد حسرتي، لأكتب لك. لم أجد بين الأحياء أذنا صاغية أو حتى شبه أذن. الجميع مشغولون بالجميع، الكل يريد أن يبوح ولا أحد يريد أن يصغي. تعبتُ من الإنصات والتنافس مع الآخرين حول من سيبدو الأكثر بؤسا. ضاقت بي السبل، انقلب شوكي ضدي، وعوض أن يحميني من الآخر، تكالب معه، فكنت الجلاد والضحية.

تعتقد يا صديقي أن البؤس لن ينتهي، أتفق معك حتى آخر حيلة أملكها، لكنني أظن أنك لم تعرف البؤس في حياتك. إذا كان لك رأي مخالف، أطلب منك أن تعيد أذنك إلى مكانها. الأمر بسيط، كما حلقتها بالفرشاة الحادة تستطيع إعادتها، اقلب الزمن رأسا على عقب وستجد نفسك قبل الجنون بقليل. وبعد ذلك جرب محاولة الإنصات إلى قصتي وستفهم أن البؤس الذي عرفته مجرد إشهار عابر، أو مدخل بسيط إلى البؤس، لا البؤس نفسه.

أنا القنفذ الملقب بـ«گوزمو»، لا تسألني عن معنى الاسم الذي لم أختره، ابن عائلة لا أتذكر منها إلا شوكها، يقولون إن طبعي حاد أكثر من شعري. عشتُ من الزمن ما يخول لي التمييز بين الشوك المسموم، شوك الورد وشوك البشر. إلا أن الذي لم

أتعلمه هو أن القدر أكثر سما من الشوك نفسه، حادة إبره، دقيقة إصابته، مؤلمة جروحه وسادية خططه الحتمية. لا سبيل للنجاة منه، سوى أن تستقبله صاغرا، أن تعتبره شرا لا بد منه، وأن تعتبره عاما ليهون.

ذات ظهيرة ناصعة الحرارة، وأنا أمارس هوايتي في تقمص دور البريء لأستطيع دس حيلي جيدا وأستدرج المخلوقات إلى جحيمي، هبت ريح الحب من حيث لا تدري سفينتي، حركت عواصف المشاعر داخلي، ونبتت الأزهار أخيرا في شوكي، أزهار لم أرها إلا أنا. كم تمنيت لو كانت لدي القدرة لأضم روحي ونطير إلى عالم حيث لا شوك ولا حيل، حيث النقاء والحياة. لقد حولني الحب من مخلوق صلب إلى قنفذ وردي بشوك لين.

ستبدو لك ألوان أخرى فيما أحاول أن أرسمه لك صديقي، ألوان جديدة للبؤس، وما عليك سوى الإنصات والانتظار. كل لوحاتك الجميلة صديقي «فَان» كانت لتبدو مجرد لوحات عاديات لو شاهدت ماذا رسم الإله، ستستحي ريشتك عن الغوص في الألوان لو شاهدت تناسق ألوانها، تلك الألوان التي تساءلت عنها في رسالتك لأخيك الأخيرة كلها تظافرت لتصنع أجمل ما وجد. هذا إن كنت فعلا كتبت قبل موتك بقليل شيئا. كم هو غريب أن يكتب شخص يفكر في الموت نصا قبل زواله عوض أن يدخن آخر سيجارة؟

أنت تعرف، ربما، أنني أخرج لأتحرى حالة كمائن نصبتها لإخوتي من الكائنات، متعب العيش بلا حيلٍ وسط عالم مكتظ بالثعالب. وعلى مقربة من خم الدجاجة، نفس الدجاجة التي تبيض للناس وجباتها، لمحتها ساطعة الجمال كشمس راقصة

في كـون مظلـم، ويـا ليتنـي لم أفعـل، يـا ليتنـي كنـت نسـيا منسـيا قبـل ذلـك. لـن أخفيـك سرا، تملكتنـي الرهبـة في الأول، ربمـا هـي رهبـة فقـدان شيء ثمـين تتمنـى أن يكـون مـن نصيبـك، أو ربمـا هـي صدمـة الإعجـاب تفقـدك توازنـك الشـعوري، أو ربمـا هـو الحـب بـكل بسـاطة.

طويلـة كحبـل نشـير ملابـس داخليـة لحوريـات البحـر، ذهبيـة كويسـكي فاخـر، مقلتاهـا تلمعـان كـما تلمـع النجـوم في ليلـة صافية، فمهـا مؤثـث بابتسـامة سـاخرة تبـدو مـن بعيـد مثـل مهرجـان ألـوان، لسـانها يتحـرك كراقصـة رشـيقة تـسر الناظريـن، كل ملامحهـا تخـبرني أن أتقـدم إلى الأمـام. تبادلنـا النظـرات، تلـك التـي تسـبق الوقـوع في متلازمـة قيـس، النظـرات التـي تـصرخ شـعرا في صمـت، وتنشـد آلمـا جميـلا. تبـادرت إلى أذني سـيمفونية رائعـة تعزفهـا جلجلـة ذيلهـا، تشـبه صـوت خلاخـل الجاريـات، قـرأت كل أشـعار الغـزل في الأثـر الـذي يتركهـا زحفهـا المتغنـج. توقـف الزمـن، الوجـود بـكل تفاصيلـه الدقيقـة تحـول إلى كيميـاء تجـري بيننـا، بالرغـم مـن اختلافاتنـا متشـابهين حتـى التطابـق، منسـجمين حتـى التـلاشي.

خـرج المنطـق كعادتـه محـاولا تدمـير كل لوحـة تحـاول الخـروج عـن بشـاعة الحيـاة، وألقـى بسـؤاله المظلـم: هـل مـن المعقـول أن يجمـع الحـب أفعـى بقنفـذ؟ بـين عدويـن أزليـين؟

كنـا ناضجـين كفايـة لنتجـاوز، كل ما ورثناهـا من مجتمعنـا، ونفتح أبـواب التاريـخ أمـام التغيـير. بادرتهـا كـما شـاءت الطبيعـة، تحملـت مغامـرة الإحـراج، تقدمـت خطوتـين، خطوتـين، حتـى صرت قـاب قوسـين منهـا، لم أتحـدث، لكننـي قلـت كل شيء، فلـم أجـد منهـا إلا القبـول، كانـت أكـثر اسـتعدادا منـي لكتابـة صفحـة جديـدة في

الحب، فتحققت مشيئة أفروديت. تخلت الأفعى للحظات عن دورها في استعمال لسانها الحاد لتفريق السم بين المخلوقات، وزرع الشر بينهم، وقررَت الاستماع لجسدها الرطب الذي يضم قلبا نقيا. وتخليت عن حيلي الماكرة وشوكي المسموم لأتفرغ للعزف على أوتار قلب أهملتها لسنوات. حولها الحب أيضا إلى أنثى كما يجب، رقيقة الإحساس، تهتم بأدق تفاصيل يومي، تحاول بكل السبل أن تضخ السعادة في شوكي. وكم حلمنا يا صديقي بعلاقة نموذجية ترسم خريطة طريق الحب لباقي الكائنات المختلفة فيما بينها شكلا.

ضربنا موعد أول لقاء، لنضع أول نقطة في نهر يجري بنا إلى الخلود في سماء العشق. ما إن بدا لي بعض منها، حتى تحرر الشاعر داخلي، وشعرت بشيء يشبه الموت يتملكني، إنه الحب كما قال ابن عربي: «موت صغير»، فخرجت الروح على شكل قصيدة عزفتها الريح:

ضم شوكي لحضنك
قبليني بسُمك
حتى يغدو الشوك
وردا
ويغدو سمكِ
ترياقا

تجمدت للحظات في مكاني، إنه المنطق اللعين مرة أخرى، جاء برداء بيولوجي هذه المرة:

كيـف أسـتطيع عناقهـا بشـوكي؟ وكيـف تسـتطيع هـي تقبيـلي بفم ينفـث السـم؟ هنـا توقفـت أفروديت.

أتمنـى أن تجيبنـي يـا صديقـي «فـان» قبـل أن أتقـدم، وأجـدني أغـوص في سـمها بـكل مـا أوتيـت مـن شـوك...

صديقك القنفذ...

مطاردة

لم أعتقد يوما أن آلة تفريخ العوالم التي تسكنني ستتعطل بعدما كانت غزيرة الإنتاج. أعيد بواسطتها تدوير المتلاشيات الاجتماعية والنفايات الملقية على هامش الحياة لأخرجها حيوات ورقية أفرغ فيها عرق الصخرة، صخرة سيزيف التي ورثها. تمكنني من لملمة الموتى من قبور لا تشبه القبور، أعيد بث الروح فيهم، أجعل لهم صوتا داخل عالم اعتاد العيش في إطارات، أصنع لهم ملامح لا تشبه ملامح يومياتي، أضع على كاهل كل واحد منهم صخرة، وأتلذذ في مشاهدتهم يتعذبون كما أتعذب. دخلت الجحر الذي يشاركني إياه صديقي العنكبوت، الذي سأقتله يوميا ما، حيث السجادة الملقية وسط دولاب من عصر غابر، واللباس الأفغاني المنسي منذ سنوات الإيمان. الجحر الذي أشعر داخله أنني قادر على خلق الحياة، كخالق بئيس، ولو من ورق أو متع وهمية. الجحر الذي أركن فيه أمنياتي داخل كرتون يسمى «شواهد»، والذي أحلم فيه يوميا لو لدى أمي قدرة على القراءة، لكنت شاعرا حالما، أو كاتب روايات متفائلا، عوض تمجيد البؤس في كل سطر أخطه كأنني أكتب نوتات موسيقية لصرخة القيامة.

انتزعت حبيبة بيضاء من بين قريناتها، ونويت أن أهيم بها بكل ما يرضي الإبداع دون مداعبات كبدوي عفن. اعتصرت مخيلتي، تذكرت تفاصيل يوم طويل عادي جدا، الرحلة من النفي نحو المركز، اللهث وراء المعرفة بعرق أخير، العمل الذي

أوجدني الفقر فيه، صديقي البئيس الدائم الابتسام... للأسف لم أجد شيئا من شأنه أن يثير الأنثى-الورقة وتخضع لي لأستعمر كيانها بحبري الغاشم. على غير العادة، بدت لي الورقة محتشمة، احتشام الممتنع، كأنها توجه لي لوما غير مصرح به، لوما عنيفا بصمت جامد. ما أحلاها عندما تتصنع الامتناع، بياضها مستفز يكاد يطفئ الحياة من مقلتي.

يا له من مأزق مؤلم! أن تجد نفسك مسجونا داخل البياض، تتصارع لتنجو من أمواجه، تقاوم، تقاوم، تقاوم، وفي الأخير، لا تستطيع النجاة حتى مثقال نقطة أو فاصلة مزيفة. فيأتي السؤال المحرج، الذي حاولت تغاضيه، ليقض مضجعي، ويكسر عالم الأحلام الذي حاولت إحياءه من رماده:

هل فقدت الكاتب -أنا؟ هل ضاع رأس الخيط وسط كبة اليومي- المتعب الذي كان يوصلني إلى فردوس الحكايات؟

كيف يكون ذلك ممكنا؟ وقد عشت دهرا أعيد ترتيب الوجود في ذهني لأخرجه بحلة جديدة تسر البعض، وتغضب البعض، لكنها في الغالب تريحني، تريحني من عبث الوجود ومن قدر مشؤوم يلاحقني. تريحني أيضا من الأسئلة الهوبياتية. أنا العازب الذي تخر له الإناث-الأوراق ساجدات، أنا المتوحش المغتصب لهن برغبتهن. ما الخطأ الذي ارتكبته حتى صرت أضعف من أحمر شفاه مزيف؟

ربما تكون الورقة البيضاء كأي أنثى تغار على حبيبها، أثيرت غيرتها عندما أهملتها محاولا إغواء أخريات ممتلئات بالحبر السوسيولوجي؟ لو كانت الورقة البيضاء عربية لرضيت بأن تشاركني مع الأخريات طمعا في الجنة، لكنها غربية الطباع

تريـدني لهـا لوحدهـا دون شريكـة.

كـذب مـن قـال إن الطقـوس تسـتمر رغـم تغـير المعتقـد، لقـد اعتـدت عـلى تغيـير معتقـداتي في اليـوم عشريـن مـرة أو أكـثر، لكـن الطقـوس كنـت أحافـظ عليهـا كلـما أردت دخـول دين قصـة جديدة: الكولـيرا أو مـا شـابهها كي أحلـق بأجنحـة أبتاعهـا بثمـن بخـس، الحب البيولوجـي، فيلـق العاشـقات السـابقات، المـوتى داخـلي، البـؤس الذي أحيـا داخلـه ويعيشـني بعتـه، وبعـض الحمـى... لربمـا اسـتمرت الطقـوس، لكنهـا فارغـة لا تـؤتي أكلهـا. مـا نفـع السـجائر لـو كان دخانهـا لا يتحـول إلى أحـلام بطـل متلاشـية؟ ومـا نفـع قنينـة الفـودكا إذ لم يتشـكل ماؤهـا نهـرا تتراقـص الأسـماك داخلـه ثملـة؟ ومـا نفـع المكتبـات التـي لا تغـري حتـى بفكـرة؟

سـأكسر القواعـد الليلـة، سـأرتدي قنـاع «غريـب» هـوارد بيكـر لأتسـلل إلى أعـماق البيـاض وأسـوده. أعتـذر يـا جميلتـي البيضـاء، يـا حليبيـة الحلـة، يـا ناصعـة الزينـة، لأننـي سـأغتصبك، لم يبـق لي سـوى انتهـاك القوانـين، دون طقـوس ومعتقـدات. سـأدخل قلمـي الأسـود الذابـل بالقصص البئيسـة، المنهـوك بوجوه شـخصيات معدمة، في أرضـك العـذراء. سـأفتح فراغـك بكفـري اللعـين، سـأغوص فيـك حتـى آخـر نقطـة، سـأندمج فيـك حتـى نغـدو واحـدا، كـوني تمثـلي الورقـي، لأكـون تمثلـك البـشري. لمـاذا لا نعيـد التاريـخ، أبيعـك الوهـم الإيديولوجـي وتبيعينـني أرضـك كـما فعـل المسـتعمر ذات إيمـان؟

نجحـت في وضـع نقطـة أخـيرا بعدما أحكمـت القبضة عـلى منطقة في دماغـي لم يسـبق أن زرتهـا. لا ينقصنـي إلا البحـث عـن الفكـرة. اعتـصرت خيـالي جيـدا، فكـرة وحيـدة تبـدو لي جالسـة يقتلهـا الملـل في ركـن منـسي، كيـف لم أفكـر فيهـا منـذ البدايـة؟ كيـف تحاشـيتها

كل هـذه المـدة؟ شـحذت همتـي ونويـت التحـرش بهـا لأدخلهـا سـجني. مـا إن شـعرت باقـترابي منهـا حتـى امتطـت انزياحـا، فانطلق بهـا كالريـح يمخـر عبـاب الأفـكار القديمـة. كنـت مضطـرا أن أكـتري مكنسـة «عشـبية» لألحـق بهـا. كانـت المطـاردة مكلفـة، اضطـررت أن أمسـح بعـض الذكريـات والوجـوه التـي كنـت أسـتعملها للاندماج وسـط مجتمـع مزيجـي. أخـيرا وضعـت يـدي عليهـا، فانسـابت بـين أصابعـي خاضعـة خانعـة.

خنقتهـا في ركـن مـن الذاكـرة، وعندمـا فككـت رقمهـا الـسري وجـدت داخلهـا جملـة مكتوبـة بحـبر دمـوي:

«لقد كتبت نصا يا غبي».

الفهرس

تقديم 5
سقوط مدو لعنكبوت 7
العبث المقدس 15
ظل ثعبان 23
ضربة نحس 29
العبوة 37
انتقام كريولة 45
خيوط العنكبوت 53
المغربي الأخير 61
حشيش الموت 67
فان كوخ 75
مطاردة 83

منشورات
"الراصد الوطني للنشر والقراءة"

1- ماذا تحكي أيها البحر...؟، فاطمة الزهراء المرابط، (قصص)، 2014.
2- ضمير مؤنث، حميد الراتي، (قصص)، 2014.
3- صدى النسيان، خليل الوافي، (شعر)، 2014.
4- بصمات (1)، (كتاب جماعي)، 2014.
5- سنوات الرمل، حماد البدوي، (مذكرات)، 2014.
6- مبدعون في ضيافة المقهى، فاطمة الزهراء المرابط، (حوارات)، 2015.
7- قطاف: مقاربات نقدية في السرد المغربي، (كتاب جماعي)، 2015.
8- بصمات (2)، (كتاب جماعي)، 2015.
9- خلف الباب أمنية، خديجة موادي، (قصص)، 2015.
10- لمسات على خد القمر، ادريس حنبالي، (قصص)، 2015.
11- انكسار السراب، زكية الحداد، (قصص)، 2015.
12- مقدمات في نقد الثقافة الشعبية، محمد شداد الحراق، (دراسة)، 2016.
13- الفرجة المغربية، عبيد لبروزيين، (دراسة)، 2016.
14- هل يكذب الأموات..؟، سميرة بورزيق، (قصص)، 2016.
15- أمواج خارج البحر، ابراهيم السكوري، (قصص)، 2016.
16- تعاويذ على مقام الخريف، خديجة گراگي، (شذرات)، 2016.
17- السرد وتمثيل الذاكرة التاريخية: قراءات في رواية "الناجون" للزهرة رميج، (كتاب جماعي)، 2016.
18- أفلاطون يصل متأخرا، سعيد موزون، (قصص)، 2016.

19- بصمات (3)، (كتاب جماعي)، 2016.
20- رحيل بسيط، حجيب الجربي، (شعر)، 2016.
21- معزوفة لرقصة حمراء، عبد القادر الدحمني، (رواية)، 2016.
22- إدوارد سعيد. الانتفاضة الثقافية، إيف كلفارون، ترجمة: محمد الجرطي، 2016.
23- آليات الهزل وخصائصه في شعر المقلين في العصر العباسي، عبد الكريم الفزني، (دراسة)، 2016.
24- رصيف الذاكرة، نجاة السرار، (قصص)، 2016.
25- نحن مختلفون، رشيد شباري، (نصوص مسرحية للأطفال)، 2016.
26- صهيل جسد، عبد الجليل ولد حموية، (رواية)، 2017.
27- Sables Fuyants، محمد بنفارس، (شعر)، 2017.
28- ثلاثي الظل، عادل التكفاوي، (قصص)، 2017.
29- عودة مكيافيلي، الصديق اروهان، (قصص)، 2017.
30- عندما تغيب في القمر السماء، محمد الجيدي، (شعر)، 2018.
31- مرآة الغريبة، محمد فاهي، (رواية)، 2018.
32- جماليات الخطاب السردي قراءات في قصص "ألق المدافن" للقاص رشيد شباري، تقديم وتنسيق: فاطمة الزهراء المرابط، (كتاب جماعي)، 2018.
33- سوانح امرأة عادية، نعمة ابن حلام، (شعر)، 2019.
34- لبيبة والجدائل الذهبية، عبد الله زروال، (مسرحية للأطفال)، 2019.
35- من يقرأ للسحابة فنجانها؟، رشيد شوقي، (شعر)، 2019.
36- المرأة الأخرى، شيماء أبجاو، (رواية)، 2019.
37- مقامات، ادريس الرقيبي، (شعر)، 2019.
38- النزعة الصوفية في الشعر الملحون بالمغرب، عز الدين المعتصم، (دراسة)، 2019.
39- على حافة المتوسط، عبيد لبروزيين، (رواية)، 2019.
40- نحوُ العطف من خلال كتاب «نتائج الفكر» لأبي القاسم السهيلي، مصطفى أنكزدم، (دراسة)، 2019.

41- الزمان في الشعر العربي القديم، جامع هرباط، (دراسة)، 2019.
42- مشاتل (1)، (كتاب جماعي)، 2019.
43- اللعب مع الزمن، مصطفى ملح، (قصص)، 2019.
44- ويبكي لغروبها الصباح، زهير اسليماني، (قصص)، 2019.
45- أنشوطة المطر، عماد شوقي، (قصص)، 2019.
46- ابن سينا في المدينة الإلكترونية، سعيد موزون، (مسرح)، 2019.
47- عودة إلى الحياة، ابتهال المعرف، (قصص)، 2019.
48- أتراك تشرقين غدا..؟، فاطمة الزهراء المرابط، (قصص)، 2019.
49- مرايا، سعيد رضواني، (قصص)، 2020.
50- نيتشه في مرآة فوكو، حسن الإدريس، (دراسة)، 2020.
51- الحياطة في الرحلة إلى طاطا، محمد كروم، (رحلة)، 2020.
52- مشاتل (2)، (كتاب جماعي)، 2020.
53- السرد العربي وسؤال المواكبة النقدية، (كتاب جماعي)، 2020.
54- الخطاب الصوفي في الشعر الملحون مقاربة موضوعاتية في ديوان الشيخ عبد القادر العلمي، عز الدين المعتصم، (دراسة)، 2020.
55- أشلاء ذاكرة، محمد فولا، (رواية)، 2020.
56- القصة المغربية وسؤال التلقي قراءات في قصص "ماذا تحكي أيها البحر...؟" للكاتبة فاطمة الزهراء المرابط، (كتاب جماعي)، 2020.
57- نساء على كرسي الاعتراف، نوال غازي، (نصوص)، 2020.
58- قرابين، حميد الهجامي، (قصص)، 2020.
59- اليد اللطيفة، كريم بلاد، (قصص)، 2020.
60- رسائل من زمان كورونا، محمد كروم ومنير المنيري، (رسائل)، 2020.
61- رقصات نورس حزين، نوفل الصغير، (قصص)، 2020.
62- أوراق من سفر الخروج، نبيل السليماني، (شعر)، 2020.
63- مدينة الظلال، منيار أحمد العيسى، (قصص)، 2021.